

ستیز قطب

فزل اللہ

دار الشروق

فَذَلَّلْنَاهُ

الطبعة الرابعة عشرة

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

الطبعة الخامسة عشرة

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيدي بويه المصري -

رابطة المهندسين - مدينة نصر

ص.ب : ٣٣ البساتين - تلخيفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني : email: dar@shorouk.com

المحتويات

٥	منهج للبشر
١٧	منهج مفرد
٢٩	منهج ميسر
٤٢	منهج مؤثر
٥١	رصيد الفطرة
٦٦	رصيد التجربة
٧٩	خطوط مستقرة
٩٦	وبعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منهج البشر

هناك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين ، وطريقة عمله في حياة البشر.. حقيقة أولية بسيطة .. ولكنها مع بساطتها ، كثيرا ما نسي ، أو لا تدرك ابتداء . فبنشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين : حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي . حاضره ومستقبله كذلك !

إن البعض ينتظر من هذا الدين - مادام مرئلا من عند الله - أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب ! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ، ولواقعهم المادي ، في أية مرحلة من مراحل نموهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم .

وحين لا يرون أنه يعمل بهذه الطريقة ، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة ، والواقع المادي للحياة الإنسانية ، يتفاعلان معه ، فيتأثران به - في فترات - تأثرا واضحا ، على حين أنها في فترات أخرى يؤثران تأثيرا مضادا لالتجاهه ، فتتعدد بالناس شهواتهم وأطماعهم ، وضعفهم ونقصهم ، دون تلبية هتاف هذا الدين ، أو الالتجاء معه في طريقه ..

حين يرون هذا فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها - مادام

هذا الدين مثلاً من عند الله - أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج
الديني للحياة وواقعيته . أو يصابون بالشك في الدين إطلاقاً !

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي : هو
عدم إدراك هذا الدين وطريقته ، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة .

إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية . يتم تحقيقه في حياة البشر
بجهود البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية ؛ وفي حدود الواقع المادي
للحياة الإنسانية في كل بيئة ، ويبدأ العمل من النقطة التي يكون البشر
عندها حينما يتسلم مقاليدهم . ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود
طاقتهم البشرية ، ويقدر ما يبدلونه من هذه الطاقة .

وميزته الأساسية : أنه لا ينفصل لحظة ، في أية خطوة وفي أية خطوة
عن فطرة الإنسان وحدود طاقته ، وواقع حياته المادي أيضاً . وأنه - في
الوقت ذاته - يبلغ به - كما تحقق ذلك فعلاً في بعض الفترات ، وكما
يمكن أن يتحقق دائماً كلما بذلت محاولة جادة - إلى ما لم يبلغه أي منهج
آخر من صنع البشر على الإطلاق . وفي بسر وراحة وطمأنينة واعتدال .

ولكن الخطأ كله - كما تقدم - ينشأ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين
أو من نسيانها . ومن انتظار الحوارق المجهولة الأسباب على يديه ... تلك
الحوارق التي تبدل فطرة الإنسان ، ولا تبالى طاقاته المحدودة ، ولا تحفل
واقعه المادي البني !

أليس هو من عند الله؟ أليس الله قادراً على كل شيء؟ فلماذا إذن يعمل هذا الدين - فقط - في حدود الطاقة البشرية المحدودة؟ وتأثير نتائج عمله بالضعف البشري؟ بل لماذا يحتاج أصلاً إلى الجهد البشري؟ ثم.. لماذا لا يتصر دائماً، ولا يتصر أصحابه دائماً؟ لماذا تغلب ثقله الضعف والشهوات والواقع المادي على رفرفته وشفافيته وانطلاقه أحياناً؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه - وهم أهل الحق - أحياناً!! وكلها - كما ترى - أسئلة وشبهات، تتبع ابتداء من عدم إدراك الحقيقة الأولية لطبيعة هذا الدين وطريقته.. أو من نسيانها!

إن الله قادر - طبعاً - على تبديل فطرة الإنسان، عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه. ولكنه - سبحانه - شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة لحكمة يعلمها. وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والرغبة في الهدى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا».. وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائماً، ولا تمحى ولا تعطل: «ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها».. وشاء أن يتم تحقيق منهجه الإلهي للحياة البشرية عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».. «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض».. وشاء أن يبلغ الإنسان من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد، وما يتفق من الطاقة، وما يصير على الابتلاء في تحقيق هذا المنهج الإلهي القويم، وفي دفع الفساد عن نفسه وعن الحياة من حوله: «أحسب الناس أن

يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن
الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .:

وليس لأحد من خلق الله أن يسأله - سبحانه - لماذا شاء هذا كله
على هذا النحو الذي أراده فكان . ليس لأحد من خلقه أن يسأله -
سبحانه - مادام أن أحدا من خلقه ليس إلها ، وليس لديه العلم - ولا
إمكان العلم - بالنظام الكلى لهذا الكون ، ومقتضيات هذا النظام في
طبيعة كل كائن في هذا الوجود .

ولماذا ؟ - في هذا المقام - سؤال لا يسأله مؤمن جاد ، ولا يسأله
ملحد جاد .. المؤمن لا يسأله ، لأنه أكثر أدبا مع الله - الذي يعرفه بذاته
وصفاته وخصائصه - وأكثر معرفة بطبيعة إدراكه البشرى وحدوده ،
وأنه لم يهباً للعمل في هذا المجال .. والملحد الجاد لا يسأله ، لأنه لا
يعترف بالله ابتداء ، فإن هو اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه -
سبحانه - ومقتضى ألوهيته ، وأنه : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .
لأنه وحده المهيمن العليم بما يفعل .

ولكنه سؤال قد يسأله هازل مائع . لا هو مؤمن جاد ، ولا هو ملحد
جاد . ومن ثم لا يجوز الاحتفال به ، ولا أخذه مأخذ الجد .. وقد يسأله
جاهل بحقيقة الألوهية وخصائصها . فالسبيل لتعليم هذا الجاهل ليس هو
الإجابة المباشرة . إنما هو تعريفه بحقيقة الألوهية وخصائصها .. حتى يعرفها
ويسلم بها فهو مؤمن . أو يحدها وينكرها فهو ملحد .. وبهذا ينتهى
الجدل . إلا أن يكون وراء 1 والمسلم منهى عن المضى في الجدل حتى
يكون وراء 1

والخلاصة التي ننهي إليها من هذا الاستطراد في هذه الفقرة : هي أنه ليس لأحد من خلق الله أن يسأله - سبحانه - لماذا شاء أن يخلق «الإنسان» بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن يبق فطرته هذه عاملة لا تمحى ولا تعطل ؟ ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي لحياة البشرية يتحقق عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية ، والواقع المادي لحياته ؟ ولم يشأ أن يجعله يتم بواسطة خارقة ، وبأسباب مبهم غامضة ! ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقائق ويعرفها ؛ ويراها وهي تعمل في واقع الحياة البشرية . ويفسر أحداث التاريخ البشري على ضوءها . فيفقه خط سيرها التاريخي من ناحية ، ويعرف كيف يواجه هذا الخط ويوجهه من ناحية أخرى . ويعيش مع حكمة الله وقدره ، فينطبع بها الانطباع الصحيح من ناحية ثالثة .

هذا المنهج الإلهي ، الذي يمثله «الإسلام» في صورته النهائية ، كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يتحقق في الأرض ، وفي دنيا الناس ، بمجرد تنزله من عند الله . لا يتحقق بكلمة : «كن» الإلهية ، مباشرة لحظة تنزله . ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه . ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب . إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر . تؤمن به إيماناً كاملاً ، وتستقيم عليه - بقدر طاقتها - وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك ؛ وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك . . . تجاهد الضعف البشري

والهوى البشرى فى داخل النفوس . وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى
للموقوف فى وجه الهدى .. وتبلغ - بعد ذلك كله - من تحقيق هذا
المنهج ، إلى الحد الذى تطيقه فطرة البشر ، والذى يبيته لهم واقعهم
المادى . على أن تبدأ بالبشر من النقطة التى هم فيها فعلا ، ولا تغفل
واقعهم ، ومقتضياته فى سير وتتابع مراحل هذا المنهج الإلهى .. ثم تنتصر
هذه الجياعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة . وتنهزم فى المعركة
مع نفسها أو مع نفوس الناس تارة .. بقدر ما تبذل من الجهد . ويقدر
ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان والمقتضيات الأحوال . وقبل كل
شيء .. بمقدار ما تمثل هى ذاتها من حقيقة هذا المنهج ، ومن ترجمته
ترجمة عملية فى واقعها وسلوكها الذاتى .

هذه هى طبيعة هذا الدين وطريقته . وهذه هى خطته الحركية
ووسائله .. وهذه هى الحقيقة التى شاء الله أن يعلمها للجياعة المسلمة وهو
يقول لها : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . « ولولا
دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . « والذين جاهدوا فىنا
لنهديهم سبلنا » .

وهذه هى الحقيقة التى شاء الله أن يعلمها للجياعة المسلمة فى غزوة
أحد حينما قصرت فى تمثيل حقيقة هذا الدين فى ذوات أنفسها فى بعض
مواقف الغزوة . وحينما قصرت فى اتخاذ الوسائل المناسبة فى بعض مواقفها .
وحيثما غفلت عن هذه الحقيقة الأولية أو نسيتها ، وفهمت أن من مقتضى

كونها مسلمة أن تنتصر حتماً! فقال لها الله سبحانه : «أولاً أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أفي هذا؟ قل : هو من عند أنفسكم» . وقال لها : «ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسبهم يأذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم» .

ولقد تعلمت الجماعة المسلمة هذه الحقيقة في هذه الغزوة ، لا بالكلام ولا بالاعتاب ، ولكن بتعلمها مع هذا بالدماء وبالآلام . ودفعت ثمنها غالياً . هزيمة بعد نصر . وخسارة بعد عم . وجراحا لم تكذ تدع أحدا معافى . وشهداء كراما فيهم سيد الشهداء حمزة - رضي الله عنه - وأعلى من ذلك كله وأشد وقعا على الجماعة المسلمة كلها : حرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشجع وجهه الكريم ، وكسر رباعيته في فمه ، ووقعه لجنبه في الحفر التي حفرها أبو عمرو العاصق حليف قريش مكيدة للمسلمين . وجهد المشركين له - صلى الله عليه وسلم - وهم يطاردونه ، وهو مفرد في نفر من أصحابه استشهدوا واحدا بعد واحد وهم يذودون عنه ، ويترس أحدهم - أبو دجانة - بظهره عليه بفيه نبل المشركين ، والنبل يقع في ظهره فلا يتحرك .. حتى تاب إليه المؤمنون من هزيمتهم وحيرتهم ، وهم يتلقون هذا الدرس الشاق المرير!

على أنه من الملاحظ الواضح أن ترك المنهج الإلهي للجهد الشرى ، يتولى تحقيقه في حدود الطاقة البشرية ، يصلح النفوس الشرية ، ويصلح الحياة الشرية .. تقول هذا لا لتعلل به مشيئة الله - سبحانه -

في جعل الأمر على ما جعله . ولكن لنسجل - فقط - ملاحظة واقعية
لآثار هذه المشيئة في حياة العباد .

ذلك أن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة
الناس في أمر هذا الإيمان . مجاهدتهم بالقلب بكرهه باطلهم وجاهليتهم
والعزم على نقلهم منها إلى الحق والإسلام . ومجاهدتهم باللسان بالتبليغ
والبيان . ورفض باطلهم الزائف ، وتقرير الحق الذي جاء به الإسلام .
ومجاهدتهم باليد بالدفع والإزالة من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة
الباغية والبطش العشوم ! .. وحتى يتعرض في تلك المجاهدة للابتلاء
والأذى ، والصبر على الابتلاء والأذى ، والصبر على الهزيمة والصبر على
النصر أيضا - فالصبر على النصر أشق من الصبر على الهزيمة . ثم يثبت ولا
يرتاب ، ويستقيم ولا يتلذذ ، ويمضي في طريق الإيمان راشدا صاعدا .

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في
أمر هذا الإيمان لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس ، وتفتح
له في الإيمان آفاق لم تكن لتفتح له أبدا وهو قاعد آمن ساكن ، وتبين
له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتبين له أبدا بخير هذه
الوسيلة . ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصورات ، وعباداته وطباعه وانفعالاته
واستجاباته ، ما لم يكن ليلغيه أبدا بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة .

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم
ببعض لفسدت الأرض » وأول ما تفسد : هساد النفوس بالركود الذي
تنأس معه الروح ، وتسرحى معه الهمة ، ويتلفها الرخاء والطراوة . ثم
تنأس الحياة كلها بالركود . أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها كما يقع

لأنهم حين نلتى بالمرحاء !

فهذه كذلك من المفطرة التي فطر الله الناس عليها لقد جعل صلاح هذه المفطرة في المحاهدة لإقرار منج الله للحياة الشريفة ، عن طريق الجهد البشري ، وفي حدود الطاقة الشريفة كذلك .

ثم إن هذه المحاهدة وما يصاحبها من الابتلاء . هي الوسيلة العملية لتسميخ الصفوف .. بعد تسميخ النفوس - ولتقوية الجماعة من المعطين والمعوقين والمرحطين ، ومن صغاف النفوس والقلوب ، ومن المخادعين والمتنافقين والمرائين ..

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة وهي تتعرض للامتحان ، وتتعرض للابتلاء ، وتتكشف فيها خطايا النفوس ، كما تتميز فيها الصفوف . تحت مظارق الابتلاء ومشقة التجربة ، ومرارة الآلام .

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله أن يعلمها للجماعة المسلمة ، وهو يعقب على أحداث العزوة . فيقول لها ، رداً على سؤال المسلمين : « ألي هذا ؟ » « قل : هو من عند أنفسكم » .. ثم يعقب على هذا بقوله : « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله . وليعلم المؤمنين وليعلم الدين نافعوا » .. « وما كان الله لينز المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .. « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، ولينص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » ... كل ذلك يستقر في حسهم أنه مع أن ما أصابهم كان بسبب تقصيرهم في تمثيل

حقيقة الإيمان كاملة في مشاعرهم وتصرفاتهم في الغزوة .. فإنه كذلك كان
لحيرهم في النهاية بفضل الله عليهم ، وتجاوزه عن تقصيرهم ، واتخاذ
نتائج مادة لتعليمهم وتمحيصهم وتطهيرهم ، وتمييز صفوفهم .. وكله
خير لأنفسهم وحياتهم في نهاية المطاف ..

ولا يتم تمام القول في طبيعة هذا الدين وطريقته ، حتى تضيق إلى
تلك الحقيقة التي نرجو أن نكون قد كشفنا عنها في هذا البيان .. تكلة
ضرورة لها لا بد من بيانها كذلك :

إن كون هذا المسح الإلهي متروك لتحقيقه للجهد البشري ، في حدود
الطاقة البشرية ، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في شتى
المداير ، وشتى اليناث .. لا يعنى استقلال الإنسان نهائيا بهذا الأمر ،
وانقطاعه عن قدر الله وتديبره ، ومدده وعونه وتوفيقه ونيسره .. فتصور
الأمر على هذا النحو مخالف في أصوله لطبيعة التصور الإسلامى .

ولقد بينا فيما سلف أن الله ... سبحانه ... يساعد من يجاهد للهدى :
«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .. وأنه يعبر حال الناس حين يغيرون
ما بأنفسهم ، وأنه لا يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم : «إن الله لا
يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وهذان النصان يوضحان لنا العلاقة بين الجهد الشرى الذى يبذله
الناس ، وعون الله ومدده الذى يسعفهم به ، فيبلغون به ما يجاهدون
فيه من الخير والهدى والصلاح والفلاح .

فإرادة الله هى الفاعلة فى النهاية ، ويدونها لا يبلغ «الإنسان» بدانه

شيئاً ، ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها ، ويستمد عونها
ويجاهد في الله ليلع رضاه

وقدر الله - مع ذلك كله - هو الذي يحيط بالناس والأحداث ،
وهو الذي يتم وقفه ما يتم من ابتلاء ، ومن خير يصيبه الناحون في
هذا الابتلاء .

وهذه هي الحقيقة التي شاء الله - سبحانه - أن يعلمها للجماعة
المسلمة . وهو يبين لها في التعقيب على غزوة أحد أسباب النصر وأسباب
الجزية - من عملها - ثم يكشف لها عن حكمة الله من وراء الابتلاء
كله ، ومن وراء النصر والجزية : وعن تدبيره كذلك « ولقد صدقكم
الله وعده إذ تحسونهم بإذنه . حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم
من بعد ما أراكم ما نخون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد
الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليتليكم » . وليعرفهم سته الشاملة . ومردّها في
النهاية إلى مشيئته الطليقة وقدره النافذ من وراء الأسباب والوقائع . « إن
يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداؤها بين الناس .
وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين .
وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

وإذن فهو - في النهاية - تدبير الله ومشيئته وقدره ، ليتّم ما يريد
من وراء الأسباب والأحداث ، وهو الأمر الذي لا يسأل عنه سبحانه :
لأنه شأنه الإلهي ، الذي لا يسأل عنه . وهذه هي حقيقة الإيمان
الكبرى التي لا يتم في النفس إلا باستقرارها غيباً ، واطمئنانها إليها .
وهي التكلّة التي لا بد منها لما قررناه في هذا الفصل عن طبيعة هذا الدين

وطريقته . بلا تعارض بين طرق هذه الحقيقة في حس المسلم ، الذي
يتذوق قلبه حقيقة هذا الدين ، كما أنزلها الله . ولا يعارضها بتصورات
ومقررات ليست مستفادة من كتاب الله ..

* * *

منهج مُتَفَرِّد

والآن يقول قائل : إذا كان الإسلام ، وهو منهج الله للحياة البشرية ، لا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس ، إلا بالجهد البشري ، وفي حدود الطاقة البشرية ، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في البيئات المختلفة .. فما ميزته إذن على المناهج البشرية ، التي يضعها البشر لأنفسهم ، ويلغون منها ما يبلغه جهدهم ، في حدود طاقتهم وواقعهم ؟ ولماذا يجب أن نحاول تحقيق ذلك المبهج ، وهو يحتاج إلى الجهد البشري ككل منهج ؟ فلا يتحقق منه شيء بمعجزة حارقة ، ولا يقهر إلهي ملزم ؟ وهو يتحقق في حياة الناس ، في حدود فطرتهم البشرية ، وطاقتهم العادية ، وأحوالهم الواقعية ؟!

وبن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ابتداءً لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام . فركن الإسلام الأول : أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. وشهادة أن لا إله إلا الله ، معناها القريب : إفراد الله - سبحانه - بالألوهية ، وعدم إشراك أحد من خلقه معه في خاصية واحدة من خصائصها .. وأولى خصائص الألوهية : حق الحاكمية المطلقة ، الذي ينتشأ عنه حق التشريع للعباد ، وحق وضع المناهج لحياتهم ،

وحق وضع القيم التي تقوم عليها هذه الحياة . فشهادة «أن لا إله إلا الله» لا تقوم ولا تتحقق إلا بالاعتراف بأن لله وحده حق وضع المنهج الذي نجرى عليه الحياة البشرية ، وإلا بمحاولة تحقيق ذلك المنهج في حياة البشر ، دون سواه .. وكل من ادعى لنفسه حق وضع منهج حياة جماعة من الناس ، فقد ادعى حق الألوهية عليهم ، بادعائه أكبر خصائص الألوهية . وكل من أقره منهم على هذا الادعاء فقد اتخذها لها من دون الله ، بالاعتراف له بأكبر خصائص الألوهية .. وشهادة أن محمدا رسول الله ، معناها القريب : التصديق بأن هذا المنهج الذي بلغه لنا من الله ، هو حقا منهج الله للحياة البشرية ، وهو وحده المنهج الذي نحن ملزمون بتحقيقه في حياتنا وفي حياة البشر جميعا .

ومن ثم فنحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ، لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام التي ندعيها . وهي لا تتحقق إلا بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . وهذه الشهادة لا تقوم إلا بإفراد الله بالألوهية . إفراده بحق وضع منهج الحياة . ومحاولة تحقيق ذلك المنهج الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله .

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأسباب تتعلق بالمنهج ذاته . فهو - وحده - المنهج الذي يحقق كرامة «الإنسان» ويمنحه الحرية الحقيقية ، ويطلقه من العبودية .. هو - وحده - الذي يحقق له التحرر الكامل الشامل المطلق - في حدود إنسانيته وعبوديته لله - التحرر من

العبودية للناس بالعبودية لله رب الناس .. وما من منهج آخر في الأرض يحقق هذه الخاصية إلا الإسلام .. ذلك أنه بربايته ، التي تفرد الله - سبحانه - بالألوهية ، ومن ثم تفرده - سبحانه - بحق الحاكمية التي تشرع للناس منهج حياتهم .. يجعل للناس إلها واحدا ، وسيدا واحدا . ويمنع أن يكون بعضهم آلهة لبعض ، لهم حق الحاكمية بعضهم على بعض ، ولهم حق السيادة بعضهم على بعض ، في مقابل العبودية التي يتسم بها من يقرون هؤلاء الآلهة بخصائص الألوهية !

وفي هذه الخاصية يتفرد المنهج الإلهي . لا باللفظ والدعوى ، ولكن بالحقيقة والواقع .. ومن ثم كانت دعوة الرسل جميعا - عليهم الصلاة والسلام - هي أفراد الله بالألوهية ، وإنكار كل خاصية من خصائصها على غير الله - سبحانه - من عبيده ، الذين يتألمون ، فيدعون حق وضع المناهج لحياة عباد الله ، ويقرهم على هذا الادعاء من لا يؤمنون بوحدة الله !

ولقد قال الله عن اليهود والنصارى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » .. وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان ، إنما كانوا - فقط - يقرون لهم بحق التشريع لهم من دون الله ، وبحق وضع المناهج لحياتهم بالتشريع . فقال الله عنهم : « إنهم اتخذوهم أربابا . وإنهم خالفوا عن أمر الله لهم بالتوحيد . وإنهم مشركون .. »

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق ، عن عدي بن

حاتم - رضى الله عنه - أنه لما بلغت دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فر إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أخته وأعطاه . فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتقدم عدى إلى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طيئ . أبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم . فتحدث الناس بقدمه . فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي عنق عدى صليب من فضة - وهو يقرأ هذه الآية : « اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .. قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : « بلى ! إني أرى حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعهم ، فذلك عبادتهم إياهم ! »

وقال السدي : استصحبوا الرجال ، وسبّوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » ، أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ .

والإسلام وحده هو الذي يفرد الله - سبحانه - بالعبادة ، حين يفرد به بالحاكمة وحق وضع المنهج لحياة الناس . ومن ثم فهو - وحده - الذي يطلق الناس من العبودية لغير الله ... ولهذا فمن ملزمون بمحاولة تحقيق هذا المنهج دون سواه !

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ، لأنه - برأيه - هو المنهج

الوحيد المبرأ من نتائج الهوى الإنسانى ، والضعف الإنسانى ، والرغبة الإنسانية فى النفع الذاتى ، وفى تحقيق ذلك النفع عن طريق التشريع . لشخص المشرع . أو لأسرته . أو لطبقته . أو لشعبه . أو لجنسه .. هو اصع ذلك المنهج هو الله . وهو - سبحانه - رب البشر أجمعين . فهو لا يشرع ليحاي نفسه ! ولا ليحاي طبقة من البشر على طبقة ! ولا ليحاي شعبا على شعب ! ولا ليحاي جنسا على جنس !

والتشريع البشرى ، الذى يصنعه فرد حاكم . أو أسرة حاكمة ، أو طبقة حاكمة ، أو أمة حاكمة ، أو جنس حاكم ... يستحيل - بحسب فطرة الإنسان - أن يتجرد من الهوى ، ومن مراعاة مصلحة واضح التشريع .

فأما حين يكون منهج الله هو الذى يحكم حياة البشر ، فتنتفى هذه الصفة ويتحقق العدل الحقيقى الشامل الكامل ، الذى لا يملك منهج آخر من مناهج البشر أن يحققه فى صورته هذه . لأنه ليس بين هذه المناهج كلها ما يمكن أن يتجرد من عوامل الهوى الإنسانى ، والضعف الإنسانى والحرص على المصلحة الدائية فى صورة من الصور .

وقد يخطر لقاتل أن يقول حين يسمع التوجيهات الربانية الرفيعة فى إقرار هذا العدل الشامل الكامل ، الذى لا يتأثر بالهوى ، ولا يتأثر بالعصية والقراة من مثل قوله تعالى للجاعة المسلحة : «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون » ..

قد يخطر لقائل أن يقول : وما هي الضمانات التي تجعل الجماعة المسلمة تحقق هذا العدل الذي يدعوها الله إليه ، ويأمرها به ؟

والضمانة الحقيقية للمنهج الإسلامي كله كامنة في ضمير المسلم ، منبعثة من إيمانه ففى وحد الإيمان بهذا الدين وجدت معه أقوى ضماناته . والمسلمون يتعلمون من دينهم أن مقومات وجودهم وانتصارهم والتمكين لهم فى الأرض ، تقوم كلها على الوفاء بهذه التوجيهات ، وإلا تعرض وجودهم للزوال ، وانقلب انتصارهم هزيمة ، وذهبت ربحهم وذلوا . وهم يسمعون الله - سبحانه - يقول لهم : « وليتصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . والله عاقبة الأمور » .. ويوقنون أن الله - سبحانه - لا يهديهم حين يحيدون عن الطريق .

والجماعة المسلمة ضمانة حقيقية لتحقيق هذه التوجيهات . فهي تقوم على هذه العقيدة . وتأخذ نفسها بالتزام ما ألزمها الله . وترى فى كل إهمال أو تعريط بذيراً بسوء يلحقها كلها ، ولا يصيب الذين ظلموا منها خاصة ..

ومن ثم نحن ملتزمون بتحقيق ذلك المنهج ، لتحقيق ذلك العدل الشامل الكامل ، الذى لا يتحقق إلا فى ظل هذا المنهج المتفرد .

ونحن ملتزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ، لأنه - وحده - المنهج المبرأ من نتائج الجهل الإنسانى والقصور الإنسانى - براءته من نتائج الضعف

البشرى - فواضعه هو خالق هذا الكائن الإنسانى ، العليم بما يصلحه ويصلح له . وهو المطلع على خفايا تكوينه وتركيبه ، وحفايا الملائكات الأرضية والكونية كلها فى مدى الحياة البشرية كذلك .. فإذا وضع له منهجا كان ملحوظا فى هذا المنهج كل هذه العوامل التى يستحيل على البشر أفرادا ومجموعين فى جيل من الأجيال - وفى جميع الأجيال كذلك - أن يطلعوا عليها . لأن بعضها فى حاجة إلى استحضار جميع التجارب والظواهر للحياة البشرية فى جميع أجيالها السابقة والحاضرة ، والمستقبلية التى لم توجد بعد - وهذا مستحيل - وبعضها فى حاجة إلى الاطلاع على كل خفايا الكون المحيطة بالإنسان - وهذا مستحيل كذلك - وذلك إلى قصور الإدراك البشرى ذاته عن الحكم الصحيح المطلق حتى على ما يمكن أن تستحضر فيه التجارب والظواهر ! لأنه محكوم بطبيعته الحزئية - غير المطلقة - ومحكوم بمؤثرات الهوى والضعف الأخرى .. فليس هو إذن بالحكم فى منهج بوضع «للكائن الإنسانى» !

ومن ثم يقول الله تعالى : «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض» . ويقول : «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون»

والناس كلهم لا يعلمون .. لا يسمون ذلك العلم المطلق ، الذى يحتاج إليه وضع منهج للحياة البشرية . ومن ثم لا يكون لهم إلا الهوى وإلا الجهل حين يتصدون لما ليس من شأنهم ، ولما ليس من اختصاصهم .. فوق ادعائهم لخاصية من خصائص الألوهية .. وهو إثم عظيم . وشر عظيم !

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المذهب لأنه - وحده - المذهب الذى يقوم نظام الحياة البشرية فيه على أساس من التفسير الشامل للوجود . ولكان الإنسان فى هذا الوجود . ولغاية الوجود الإنسانى - كما هى فى الحقيقة - لا كما يرسمها الجهل والضعف والهوى البشرى ، فى أى تصور آخر غير ربانى .

وهذا هو الأساس السليم القويم الوحيد لقيام نظام للحياة البشرية على جذوره الطبيعية . فكل نظام لحياة البشر لا يقوم على أساس من هذا التفسير الشامل لا يقوم على جذوره الطبيعية ، وهو نظام مصطع لا يمكن أن يعيش طويلا . وهو مصدر شقاء للبشر طوال مدة قيامه فيهم ، حتى تحطمه فطرتهم وترجع إلى الأصل السليم القويم .

وهذا التفسير الذى يتضمنه ذلك المذهب الإلهى هو - وحده - التفسير الصحيح . لأنه من صنع خالق الوجود ، وخالق الإنسان ، العليم بحقيقة الوجود وعقبة الإنسان .. وكل تفسير آخر للوجود ، ولقيام الإنسان فيه ، ولغاية الوجود الإنسانى من صنع الإنسان نفسه ، هو تفسير قاصر ، لأن الوجود أكبر من الإنسان . فهناك استحالة فى أن يصنع له الإنسان تفسيراً شاملاً . ولأن تحديد غاية الوجود الإنسانى تحتاج إلى علم خالق هذا الإنسان وما أراحه من خلفه . كما تحتاج إلى تجرد من الهوى فى تحديد هذه الغاية ! الأمر الذى لا يتيسر للإنسان أبداً .

والذى يراجع سجل الفلسفة التى حاولت تفسير الوجود ، وتفسير مكان الإنسان فيه ، وتفسير غاية الوجود الإنسانى ، يقع على ركام عجيب . فيه من المضحكات الساذجة بقدر ما فيه من السخف

والافتعال حتى ليعجب الإنسان : كيف تصدر هذه التصورات عن «فيلسوف» !! لولا أن يتذكر أن هذا الفيلسوف إنسان ، لا يملك إلا أداة العقل البشرى . وأن هذا ليس بمجال العقل البشرى . وأن هؤلاء الناس «الفلاسفة» ! هم الذين زجوا بأنفسهم في مجال لا منارة لهم فيه ، إلا تلك الذبالة الموهوبة لهم من الله لشأن آخر غير هذا الشأن . ومجال آخر غير هذا المجال . شأن تملك فيه أن تجدى ، ومجال تملك فيه أن تنير.. ذلك هو شأن الحياة الواقعية ، وذلك هو مجال الخلافة في الأرض . وفق المنهج الإلهي . مع التطلع إلى فصل الله وعونه ، فيما يمده به من تفسير شامل للوجود ، ولغاية الوجود الإنساني .. وقوله الفصل وهو الحق .. وقد تضمن منهجه ذلك التفسير بالقدر الذي يترجم عليه التصور الإنساني الصحيح . وبالقدر الذي يقوم عليه كذلك نظام حياته على جذوره الطبيعية .

فنحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ، ليقوم نظام الحياة البشرية على جذوره الطبيعية . وليس هنالك منهج آخر ، تتوافر فيه هذه الخاصية التي لا بد منها .

ونحن أخيرا ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأنه - وحده - المنهج الذي يتناسق مع نظام الكون كله . فلا ينفرد الإنسان بمنهج لا يتناسق مع ذلك النظام . على حين أنه مضطر أن يعيش في إطار هذا الكون ، وأن يتعامل بجملة مع النظام الكوني ..

والتناسق بين منهج حياة الإنسان ومنهج حياة الكون هو وحده الذى يكفل للإنسان التعاون مع القوى الكونية الهائلة ، بدلا من التصادم معها . وهو حين يصطدم معها يتمزق ويشحق ، ولا يؤدي وظيفة الخلاقة فى الأرض ، كما أرادها الله له . وحين يتناسق مع نواويس الكون ويتوافق ، يملك معرفة أسرارها ، وتسخيرها ، والانتفاع بها فى حياته . لا ليحترق بنار الكون ولكن ليطبخ ويستدفئ ويستضىء !!!

والفطرة البشرية فى أصلها متناسقة مع ناموس الكون .. فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس ، فإنه لا يصطدم مع الكون الهائل فحسب ، بل يصطدم أيضا بعطرته التى بين جنبيه ، هيشق ويتمزق ويمتار ويقلق ، ويحيا كما تحيا البشرية اليوم فى عذاب نكد ، على الرغم من جميع الانتصارات العلمية ، وجميع التيسيرات الحضارية المادية .

إن هذه البشرية تعاني من الشقاء والقلق والحيرة والاضطراب ، وتهرب من واقعها النفسى بالأفيون والحشيش والمسكرات . وبالسعادة المخبونة ، والمغامرات الحمقاء ، و«التقاليع» السخيفة ... وذلك على الرغم من الرخاء المادى والإنتاج الوفير والحياة الميسرة ، والفراغ الكثير .. لا بل إن الحواء والقلق والحيرة لتضاعف كلها كلما تضاعف الرخاء المادى والتيسيرات الحضارية ..

إن هذا الحواء المرير يطارد البشرية كالثعبان الرعيب . يطاردها فتهرب منه ولكنها تنتهى كذلك إلى خواء مرير .

وما من أحد يزور البلاد الغنية الثرية المترفة بالتيسيرات الحضارية - وفى مقدمتها أمريكا والسويد - حتى يكون الانطباع الأول فى حسه أن

هؤلاء قوم هاربون ! هاربون من أشباح تطاردهم . هاربون من ذوات أنفسهم .. وسرعان ما ينكشف له الرخاء المادى والمتاع الحسى والإشباع الجنسى إلى حد التفرغ في الوحل .. سرعان ما ينكشف له هذا كله عن الأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ الجنسى ، والقلق العصبى ، والمرض والجنون ، والجريمة الشادة ، وفراغ الحياة من كل تصور إنسانى كريم .

لقد أحرزت البشرية - عن طريق العلم - انتصارات ضخمة في عالم الصحة والعلاج من الأمراض الجسمية . فكشفت من الأدوية ووسائل التشخيص والعلاج ما يعد انتصارات رائعة وبخاصة بعد كشف مركبات السلغا والبنسلين والملايين ..

ولقد حققت في عالم الصناعة والإنتاج ما يشبه الخوارق . وما تزال في طريقها صعدا في هذا المجال .

ولقد أحرزت انتصارات باهرة في كشفوف الفضاء ، والأقمار الصناعية ، ومحطات الهواء . ومراكب الفضاء ... وما تزال في الطريق .. ولكن ما أثر هذا كله في حياتها ؟ ما أثره في حياتها النفسية ! هل وجدت السعادة ؟ هل وجدت الطمأنينة ؟ هل وجدت السلام ؟ كلا ! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف . إنها لم تتقدم كذلك في تصور أهداف الحياة الإنسانية ، وعاية الوجود الإنسانى . وحين يقاس تصور الرجل « المتحضر » لغاية وجوده الإنسانى ، إلى التصور الإسلامى لهذه الغاية ، تبدو الحضارة الراهنة لعنة تنحط بالشعور الإنسانى إلى الخسيف ، وتصغر من اهتماماته وأشواقه وإنسانيته كلها !

إنهم في أمريكا مثلاً يعبدون آلهة جديدة ، يتصورونها غاية الوجود
الإنسانى . إله المال . وإله اللذة . وإله الشهرة . وإله الإنتاج ! ومن ثم
لا يعبدون أنفسهم لأنهم لا يعبدون غاية وجودهم الإنسانى ! وكذلك
الحال في الجاهليات الأخرى . التي تعبد آلهة مشابهة ، لأنها لا تجد إلهها
الحقيقى !

من أجل هذا كله نحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج الإلهى
للحياة البشرية . لنزد البشرية إلى إلهها الواحد ، وإلى غاية وجودها
اللائقة بالإنسانية ، وإلى الساموس الكونى الذى يشمل الكون كله
ويشملها .

وهذه هي الحقيقة التي يقرها القرآن الكريم ، وهو يستنكر مسلك
الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله ، ومنهجه في الحياة ،
محالفين بذلك عن كل شيء في هذا الوجود الكبير .

« أفغير دين الله يعنون ، وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا
وكرها ، وإليه يرجعون » ؟
وصدق الله العظيم ...

منهج ميسر

ثم يقول قائل : ولكن الشريعة لم تصير طويلا على هذا المنهج السامق الفريد . فقد تملت منه الجماعة التي حققت في الأرض فترة من الزمان ، وقد انعمت البشرية بعده إلى مناهج أخرى لا ترفع إلى تلك القمة السامقة ، ولكنها لا تكلف البشرية هذا الجهد الشاق !

وقد يبدو هذا القول صحيحا للوهلة الأولى . فقد حرص كثير من الكتاب على تثبيت هذا المعنى في النفوس ، وعلى الإيحاء بأن هذا المنهج غير عملي ولا واقعي ، ولا تطبيقه طويلا فطرة البشر ، وإنما هو دعوة «مثالية» إلى أفق غير مستطاع ! وكان لهم من وراء تثبيت هذا المعنى غرض ماكر ، هو إشاعة اليأس من إمكان استئناف الحياة في ظل هذا المنهج ، وتخذيل الجهود التي تبذل لرد البشرية إلى هذا المنهج القويم . ووجد هؤلاء الماكرون في الفتنة التي بدأت بقتل عثمان - رضي الله عنه - وما تلاه من الخلاف بين علي - كرم الله وجهه - ومعاوية ، وما أعقب هذا الخلاف من أحداث ... وجدوا في هذه الفتنة مادة خصبة ، وفي الروايات الصحيحة والزائفة عنها فرصة سانحة ، لمحاولة تثبيت ذلك المعنى الخبيث . طورا بالتلميح . وطورا بالتصريح . حسبما واتهم الظروف !

وساعدتهم في هذا المكر - عن غير قصد وبمحسن نية - جماعة من

المخلصين الذين ساءهم أن تعترض هذه الفتنة خط المد الإسلامى الصاعد فى تلك الفترة التاريخية العظيمة . وأن يقع بعض الانحراف فى تصور سياسة الحكم عما كان عليه فى عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والشيوخ بعده . وأن يقع بعض الانحراف فى سلوك بعض الأمراء أيضا .. ومن ثم يحسون بسبب إرهاب مشاعرهم ، أن المد الإسلامى كله قد توقف بعد فترة الخلافة القصيرة ! ويبدون بهذه النظرية فى حرارة إخلاصهم وشوقهم للقمة السامقة ! وحاسنهم للصورة الوضيئة القريدة ! وهذا كله يحتاج إلى إعادة النظر ، وإلى دقة النظر ، وإلى تقدير العوامل البشرية . مع تقدير طبيعة هذا الدين ، وطبيعة مهجه لقيادة خطى البشرية فى الزمن الطويل ، وفى مختلف النيات ، ومختلف الظروف .

إنه ليس صحيحا - ابتداء - أن هذا المنهج الإلهى ، يكلف النفس البشرية جهدا أشق من أن تطبيقه أو أن تصبح طويلا عليه . إنه منهج سامق فعلا . ولكنه فى الوقت ذاته منهج فطرى . يعتمد على رصيد الفطرة ، وينفق من هذا الرصيد المذخور . وميزته أنه يعرف طريقه منذ اللحظة الأولى إلى هذا الرصيد !

إنه يعرف طريقه إلى النفس البشرية منذ اللحظة الأولى . يعرف دروبها ومنحباتها فيتدسس إليها بلطف ، ويعرف مداخلها ومخارجها فيسلك إليها على استقامة ، ويعرف قواها ومقدراتها فلا يتجاوزها أبدا ، ويعرف

حاجاتها وأشواقها فيليبها تماما ؛ ويعرف طاقاتها الأصلية البانية فيطلقها للعمل والبناء ...

وعلى كل رفعة ونظامه وسموه وسموه .. هو نظام «للإنسان» . لهذا الإنسان الذى يعيش على سطح هذه الأرض . نظام يأخذ فى اعتباره فطرة هذا الإنسان بكل مقوماتها . وخصائص تكوينه وتركيبه بكل مقتضياتها .

وحين نستقيم النفس مع فطرتها ؛ وحين تلى حاجاتها وأشواقها ، وحين تطلق طاقاتها للعمل والبناء ، فإنها تجرى مع الحياة فى يسر وطواعية ؛ وتمضى مع خط الفطرة الصاعد ، إلى القمة السامقة ؛ وهى تجد الأنس والاستراح والطمأنينة والثقة فى خط سيرها الطويل .

وبعض الذين يشككون ويشككون فى إمكان تحقيق هذا المنهج تروعه «أخلاقية» هذا المنهج ؛ وأصالة العنصر الأخلاقى فى تكوينه ؛ ونهولهم تكاليف هذه «الأخلاقية» فيه ؛ ويتصورونها قيودا وكوابح دون انطلاق الإنسان إلى ما يشتهى ؛ وإلى ما تدفعه إليه نوازعه الفطرية وأشواقه !

وهذا وهم ناشئ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين ..

إن أخلاقية الإسلام لا تتمثل فى مجرد مجموعة من القيود والكوابح والضوابط الرادعة . كلا ! إنها فى صميمها قوة بناءة ، وحركة دافعة إلى

النمو المطرد ، وانطلاق إلى الحركة وتحقيق الذات في هذه الحركة .. ولكن
في أسلوب نظيف ..

إن العمل والإيجابية صورة أخلاقية في هذا المنهج . فالتبطل والسلبية
صورة غير أخلاقية ، لأنها تناقض غاية الوجود الإنساني .. كما يصورها
الإسلام .. وهي الخلافة في الأرض ، واستخدام ما سخره الله للإنسان
من قواها وطاقاتها في التعمير والنماء .

والجهاد لتحقيق الخير ومكافحة الشر صورة أخلاقية ، تنطلق فيها
طاقات أساسية في الكيان الإنساني ، بينما هي في اعتبار الإسلام طاعة
يتمثل فيها العنصر الأخلاقي في صورة رائعة ..

وحق حين نأخذ الصور الأخلاقية التي تبدو في ظاهرها قيودا
وكوابح ، فإننا نجد بها من الجانب الآخر تمثل صورا من الانطلاق
والتححرر .. والحركة ..

نأخذ مثلا صورة ضبط النفس عن الاندفاع مع الشهوات الحسية
المحرمة .. إنها في ظاهرها تدوكتا وكبحا .. ولكنها في حقيقتها تمثل
التحرر من العبودية لهذه الشهوات ، والانطلاق من عقاها ، واستعلاء
الإرادة الإنسانية ، بحيث «تختار» مواضع هذه الشهوات ، في حدود
النظافة التي يوفرها الإسلام ، وفي دائرة الطيبات التي أحلها الله ^(١) .

كذلك نأخذ صورة أخرى من صور الأخلاقية .. صورة الإيثار . إنها

(١) يراجع فصل «نعمت أعتاق» في كتاب «مجمع إسلامي» تحت الطبع . وفصل
«القيد والحرية» في كتاب «في التمس والمجمع» لمحمد قطب

قد تدو تكيفا للنفس ، وكما لها من التمتع بكل ما تملك ، لتؤثر به
نفسا أخرى ولكنها في صميمها انطلاق من الشح ، واستملاء على
المحرص ، وسعة في الشعور بالخير العام ، الذي لا ينحصر في إطار
الذات .. فهي في حقيقتها انفلات ونحر وانطلاق .

ولا يملك المصطفى في عرض الأمثلة الكثيرة على هذا النحو . فحسنا
هذه الإشارة ، لهم حقيقة « القيود » الأخلاقية في المذهب الإسلامي .

إن الإسلام يعتبر الآثام والردائل قيودا وأغلالا ، تشد النفس
الإنسانية وتثقلها ونهبط بها إلى الوحل وبعد الانطلاق من أوهاق الميول
الهاطلة تحررا وانطلاقا ، وكل « أخلاقته » تقوم على هذا الأساس .

ذلك أنه يعتبر أن الأصل في الفطرة هو الاستعداد للخير ، فالإنسان
خلق في أحسن تقويم . وإنما يرتد أسفل سافلين حين يستسلم لغير مذهب
الله : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين .
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .. ومن ثم فإن المذهب الذي يلائم
الفطرة ، هو الذي يعينها على الانفلات من القيود الطارئة على الفطرة
الحيرة ، والتحرر من ربة الشهوات المقيدة !

والإسلام يحرص على قيادة المجتمع البشري ، والهيمنة عليه ، لينشئ
فيه حالات وأوضاعا تطلق الأفراد من الانحرافات الدخيلة على الفطرة ،
وتسمح للقوى الخيرة الباقية في الفطرة بالظهور والتحرر والضوق ، وتزيل
العوائق التي تحول بين الفطرة والانطلاق إلى الخير الذي فطرت عليه .

والذين يظنون أن « أخلاقية » الإسلام تجعل منه عبئا ثقيلا على

الشرية . تحول دون تحقيقه في حياتهم ، إنما يستمدون هذا الشعور بما
يعانيه الفرد المسلم ، حين يعيش في مجتمع لا يبيح عليه الإسلام
وحيث يكون الأمر كذلك يكون الإسلام بأخلاقيته عبئا ثقيلا فادحا
بالفعل ، يقصم ظهور الأفراد الذين يعيشون بإسلامهم الطيف ، في
المجتمع الجاهلي القذر ، ويكاد يسحقهم سحقا !

ولكن هذا ليس هو الوضع الطبيعي الذي يفترضه الإسلام ، وهو
يفرض «أخلاقيته» الرفيعة النظيفة السامقة على الناس .. إن الإسلام نظام
واقعي . ومن ثم فهو يفترض أن الناس الذين يعيشون بمحبته ، يعيشون
في مجتمع يبيح عليه الإسلام . وفي هذا المجتمع يكون الخير والفضيلة
والنظافة هي «المعروف» الذي يعرفه وبصونه كل القائمين على هذا
المجتمع . ويكون الشر والرذيلة والقذارة هي «المكروه» الذي تطارده كل
القوى المهيمنة على هذا المجتمع أيضا !

وحيث يستقيم الأمر - على هذا النحو - يصبح المنهج الإسلامي للحياة
منها ميسرا شديدا التيسير بل تصبح الصعوبة الحقيقية هي مخالفة الأفراد
لهذا المنهج ، ومحاولتهم الاندفاع مع الشهوات الهابطة ، ومقارفة الشر
والرذيلة . لأن كل القوى المهيمنة على المجتمع حينئذ - مضافا إليها قوى
الفطرة السليمة المستقيمة - تقف في وجوههم ، وتحمل طريقهم المنحرف
شاقا عسيرا !

ومن هنا يحتم الإسلام أن تكون المهيمنة المطلقة على الجماعة البشرية لله
ولمنهج الله ، ويحرم أن تكون هذه المهيمنة المطلقة لأحد من خلق الله ،
ولمنهج من صنع غير الله . ويعد هذا كفرا صريحا أو شركا كاملا - كما

أسلفنا في مقدمات الفصل السابق - فالإسلام له صورة واحدة ، هي أفراد الله سبحانه بالألوهية .. أى أفراد منهجه بالهيمنة على الحياة البشرية . لأن هذا هو المعنى المباشر القريب لشهادة أن لا إله إلا الله كما أسلفنا .

كذلك يفترض الإسلام قيام مجتمع إسلامي يعيش في ظله الفرد المسلم بدينه هذا ، وبخلق الله الذي يفرضه هذا الدين . ذلك أن الشعور الإسلامي للوجود كله ، ولغاية الوجود الإنساني ، يختلف اختلافا جوهريا عن جميع التصورات الجاهلية - وهي التي يصوغها البشر لأنفسهم في معزل عن هدى الله في أى زمان وفي أى مكان - وهو اختلاف رئيسي لا مجال فيه للالتقاء في منتصف الطريق ..

فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور ، بكل قيمه الخاصة . لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي ؛ ولا بد له من بيئة غير البيئة الجاهلية .

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ، وبالمنهج الذي ينبثق منه ، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية ، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه ؛ وبلا عوائق من خارجه تسحقه أو تظفئ عليه .

وفي هذا الوسط يحيا الفرد المسلم حياة طبيعية مريحة ؛ لأنه يتنفس أنفاسه الطبيعية ؛ ويجد على الخير أعوانا ؛ ويجد في أتباع « الأخلاقية » الإسلامية راحة شعورية ، وراحة اجتماعية .

وبغير هذا الوسط تصبح حياة هذا الفرد متعذرة - أو شاقة على الأقل - ومن هنا ينبغي أن يعلم من يريد أن يكون مسلماً ، أنه لا يستطيع أن يزاول إسلامه إلا في وسط مسلم ، يهيمن عليه الإسلام . وإلا فهو واهم إذا ظن أنه يملك أن يحقق إسلامه ، وهو فرد ضائع أو مطارد في المجتمعات الجاهلية !

إن المنهج الإسلامي مبسر ، حين يعيش في وسطه هذا . وهو يفترض أن هذا الوسط لا بد من وجوده . ويقم توجيهاته كلها على هذا الأساس .

• • •

كذلك ليس صحيحاً أن هذا المنهج يكلف البشرية جهداً أشق من الجهد الذي تبدله وهي تحيا في ظل المناهج الجاهلية ..

إن المناهج الجاهلية - وهي التي يتخذها البشر لأنفسهم في معزل عن هدى الله في أي زمان وفي أي مكان - تتسم حتماً بشيء من نتائج الجهل البشري والضعف البشري والهوى البشري - وذلك في أحسن حالاتها - فهي من ثم تصطدم بالفطرة البشرية اصطداماً كلياً أو جزئياً . ومن ثم تشق بها النفس بقدر ما فيها من التصادم مع فطرتها !

ثم إنها تتسم كذلك بالعلاجات والحلول الجزئية للمشكلات البشرية . وكثيراً ما تعالج جانباً يائزاً الجانب الآخر ، وتلك هي الثمرة المباشرة للرؤية الناقصة التي لا تلم بجميع الجوانب في الوقت الواحد . فإذا عادت إلى علاج الداء الجديد الذي أنشأه العلاج للداء الأول ، أنشأت داءً جديداً ... وهكذا دواليك ... كما تشهد بذلك دراسة التقلبات والأطوار التي أنشأتها النظم البشرية والمناهج البشرية ... الجاهلية ... وهذا وذلك

يكلف البشرية - ولا شك - جهودا أشق من الجهد الذى نبذله للمسيح الكامل الشامل المستقيم مع الفطرة ، الذى ينظر إلى مشكلاتها كلها من جميع الجوانب ، ويضع لها العلاج الكامل الشامل ، المنبثق من الرؤية الكاملة الشاملة .

والذى يراجع سجل الآلام البشرية ، الناشئة من مناهج الجاهلية ، و تاريخها الطويل ، لا يجرؤ على القول بأن هذا المنهج الإلهى بكل تكاليفه ، وبكل «أخلاقته» يكلف البشرية من الجهد مالا تكلفه لها المناهج الجاهلية !

وأيسر ما فى هذا المنهج أنه - وهو يضع فى حسابه البلوغ إلى القمة السامقة - لا يعتسف الطريق ، ولا يستعجل الخطى ، ولا يتخطى المراحل .. إن المدى أمامه ممتد فسيح ، لا يحده عمر فرد ، ولا تستحته رغبة فأن يخشى أن يعجله الموت أو الفوت عن تحقيق غايته البعيدة ، كما يقع لأصحاب المذاهب والمناهج الأرضية من البشر الفانين ، الذين يعتسفون الأمر كله فى جيل واحد ، وينخطون الفطرة الحادثة الخطى ، ليقتفروا إلى تحقيق صورة براقة تخاليل لهم ، ولا يصيرون على الخطو الطبيعى الهادئ المطمئن البصير .. وفى الطريق المعتسف الذى يسلكونه تقوم المحازر ، وتسيل الدماء ، وتشتعل القيم ، وتضطرب الموازين .. ثم يتحطمون هم فى النهاية تحت مطارق الفطرة التى لا تصمد لها الأجهزة المصطنعة العوف !

فأما المنهج الإسلامى فيسير هينا هينا - مع الفطرة - يوجهها من هنا ، ويدودها من هناك ، ويقومها حين تميل ولكنه لا يكسرهما ولا يحطمهما

ولا يجهد بها كذلك . إنه يصبر عليها صبر العارف البصير ، الواثق من
الغاية البعيدة المدى ، الأكيدة التحقيق .. والذي لا يتم في الجولة الأولى
يتم في الجولة الثانية ، والذي لا يتم في الجولة الثانية يتم في الجولة
الثالثة .. أو العاشرة .. أو المئة .. أو الألف ! كل ما هو مطلوب هو بذل
الجهد والمضي في الطريق !

وكما تنبت الشجرة الياسفة ، وتضرب بجذورها في أعماق التربة ،
وتتغاول فروعها وتتشابك .. كذلك ينبت هذا المسج في النفس والحياة
ويمتد في نطه ، وعلى هبة ، وفي ثقة وطمأنينة .. ثم يكون ما يريد الله
أن يكون

إن الإسلام يلقي بذوره ، ويقوم على حراستها ، ويدعها حينئذ تنمو
عموها الطبيعي الهادئ وهو واثق من الغاية البعيدة ومهما يحدث من
الخطأ أحيانا ، ومن التراجع أحيانا ، فإن هذا شأن المطرة .. والزرعة
قد تسقى عليها الرمال . وقد يأكل بعضها الدود . وقد يحرقها الظمأ وقد
يغرقها الري . وقد تصاب بشتى الآفات .. ولكن الزارع البصير يعلم أنها
زرعة للبقاء والنماء ، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل . فلا
يعتسف ، ولا يقلق . ولا يحاول أن ينضحها بغير وسائل المطرة الهادئة
اليسيرة .. ومن ثم يصاحبها اليسر ، وتسهل تكاليفها على الفوس .

على أننا لا محتاج - اليوم - إلى الحديث عما تعانيه البشرية من
اعتساف المناهج الجاهلية وأصحابها . وحسبنا ما نتجأ به من الشقوة في
مشارك الأرض ومعاربها وما يجهر به بقية العقلاء من صيحات الإنذار
والخطر في كل مكان ..

وأخيرا فإنه ليس صحيحا أن هذا المنهج لم يعيش طويلا - كما يقول بعضهم في بحث وكيد - وبعضهم في حماسة وغيرة ! فإن نساء الروحي والاحتماعي والسياسي ، الذي قام على أساس هذا المنهج السامق الفريد ، والذي لم يستغرق بناؤه سوى قرن واحد من الزمان - بل نصف قرن في الحقيقة - قد ظل يقاوم جميع الآفات التي تسلبت إليه ، وجميع العداوات التي ساورتها ، وجميع الهجمات الوحشية التي شنت عليه .. أكثر من ألف عام ..

وقد ظلت هذه العوامل الرهيبة تساوره وتهاجمه وتسلب إلى قواعده في إصرار .. ووراءها جميع قوى العالم الجاهل .. فلا تبلى أن تحطمه من أساسه . ولكنها مع تطاول الزمان ، ومع التجمع والترصد ، ومع الإصرار والاستمرار ، ظلت تنقص منه شيئا فشيئا ، وتتحرف به عن أصوله شيئا فشيئا ، حتى أضحى فعلها وهددته تهديدا خطيرا .. ومع هذا كله فإنها لم تستطع - حتى اللحظة - تشويه أصوله النظرية ، فما تزال هذه الأصول قادرة على البعث الجديد ، حين يعتقها جيل جديد !

ولكني ندرك قيمة هذه الحقيقة التاريخية ، ينبغي أن ننظر إلى بناء آخر ، قام على منهج جاهل .. ذلك هو بناء الدولة الرومانية .. لقد استغرق هذا البناء قرابة ألف عام ثم تحطم فيها لا يزيد على قرن واحد تحت ضربات الهون والقوط .. ولم يبق بعد ذلك أبدا . ولا بقيت في أصوله بقية يهض عليها بعث جديد !

وهذا هو الفارق الأساسي بين منهج الله ومنهج العيد !

نعم إنه كانت هناك فترة هارعة في تاريخ هذا المنهج - وفي تاريخ

الشرية كله - ظلت تراءى و التاريخ الشرى كله ، كالفقة السامقة ،
تتطاول إليها الأصاق ، وتتطلع إليها الأنظار ، وهى و مكاتها السامى
هناك !

وهى فترة قصيرة فعلا ..

ولكن هذه الفترة ليست هى كل العهد الإسلامى .. إنما هى منارة
أقامها الله ، لتظل الشرية تتطلع إليها ، وتحاول أن تلغها كذلك ،
وتتحدد آمالها و بلوغ القمة السامقة ، وهى تدرج إليها فى المرتقى
الصاعد ، ويقسم الله لها ما يقسم من المذارج فى هذا المرتقى . وهى تتطلع
دائما إلى المنارة الهادية !

حقيقة إن هذه الفترة لم تكن وليدة معجزة لا تتكرر ، وأنها كانت
ثمره الجهد البشرى الذى بذلته الجماعة المسلمة الأولى ، وأنها ممكنة
التحقيق حين يبذل مثل ذلك الجهد مرة أخرى ..

ولكن هذا الجهد الذى بذلته طائفة مختارة من البشر ، قد يكون
مرصودا لكثير من الأجيال البشرية القادمة - لا لجيل واحد - وقد يكون
تحقيق تلك القمة الفريدة فى ذلك الجيل الواحد ، قدورا من أقدار الله ،
لكى يقوم هذا النموذج فى صورة واقعية تتمكن محاولتها ، وتتمكن معرفة
خصائصها .. ثم يترك للبشرية بعد ذلك فى أحيائها المتناوعة ، أن تحاول
بلوغها من جديد ..

وقد ظل المنهج يودى دوره ، فيها بعد هذه الفترة ، فى مساحات
واسعة من الحياة البشرية ، وظل يفعل فى تصورات البشرية وتاريخها

وواقعها أحيالا طويلة ، وترك من ورائه آثارا وتيارات في حياة البشرية
كلها ، لعلها هي التي تجعلنا نأمل اليوم ، في إمكان البشرية أن تتطلع
إلى المحاولة من جديد ...

* * *

منهج مؤثر

على أن هذه الإشراقة اللامعة ، بلغت من التأثير الدائم في واقع الحياة البشرية ، قدر ما بلغت من الياء والرفعة ، ومن العظمة والكمال وخلفت في واقع البشرية التاريخي من الآثار الباقية ، ما قد يجعل الجيل الحاضر من هذه البشرية اليوم أقدر على المحاولة من سائر الأجيال التي حلت - بعد تلك الصوة المختارة من رجال الصدر الأول - وذلك بمساعدة التيارات التي أطلقها ، والرواسب التي خلفها ، في التصورات والقيم . وفي العظم والأوصاع سواء

وستحاول في هذا الفصل أن نلم - في اختصار وإجمال يناسب طبيعة هذا البحث المحمل المختصر - بلمحات عن آثار هذه الإشراقة الوحيية الفريدة ، لا في تاريخ الأمة الإسلامية وحدها ، ولكن كذلك في تاريخ البشرية بأكملها .

لقد استطاعت تلك الفترة أن تنشئ في واقع الحياة البشرية عددا كبيرا من الشخصيات الموحدة ، تتمثل فيها الإنسانية العليا ، بصورة غير مسوقة ولا منحوقة صورة تبدو في ظلها جميع الشخصيات البشرية التي نشأت في غير هذا المنهج ، أقزاما صغيرة ، أو كائنات لم تستكمل وجودها

بعد ، أو كائنات غير متناسقة على كل حال !

ولم تكن هذه الشخصيات المودجة التي أخرجها المسيح الإلهي في تلك القنطرة القصيرة آحادا تعد على أصابع اليدين ، إنما كانت حشدا كبيرا ، يعجب السائح كيف انبثقت هكذا سامقة ناضجة إلى هذا المستوى العجيب ، في هذه القنطرة القصيرة المحدودة . ويعجز عن تعليل انبثاقها على هذا النطاق الواسع ، وعلى هذا المستوى الفارع ، وفي مثل هذا التنوع في التماذج .. ما لم يرد هذه الظاهرة الفريدة إلى فعل ذلك المنهج الفريد .

والهم أن نعرف أن هؤلاء الناس ، الذين تمثلت فيهم نماذج الإنسانية العليا . النماذج التي ظلت فريدة في سموها ، وظلت سائر التماذج على مدار القرون تبدو في ظلها أقزاما صغيرة ، أو كائنات غير تامة الوجود .. اللهم أن نعرف أن هؤلاء الناس الذين حققوا ذلك المنهج الإلهي في حياتهم على هذا النحو العجيب ، قد ظلوا - مع هذا - ناسا من البشر لم يخرجوا عن طبيعتهم ، ولا عن فطرتهم ؛ ولم يكتبوا طاقة واحدة من طاقاتهم البانية ، ولم يكلفوا أنفسهم كذلك فوق طاقتهم . لقد راولوا كل شاطئ إنساني ، وأصابوا من الطيبات كل ما كان متاحا لهم في بيئتهم ورماسهم .. لقد أخطأوا وأصابوا ، وعثروا ونهضوا ، وأصابهم الضعف البشري أحيانا - كما يصيب سائر البشر - وغالبوا هذا الضعف ، واتصروا عليه أحيانا أخرى ..

والمعرفة بهذه الحقيقة ذات أهمية قصوى . فهي تعطي البشرية أملا قويا في إعادة المحاولة ، وتعمل من واجبا - بل تعمل من حقها - أن

تطلع إلى هذه الصورة الوضيعة الممكنة ، وأن تظل تنطلع . فهي صورة من شأنها أن تزيد من ثقة البشرية بنفسها ، وبفطرتها ، وبمقدوراتها الكامنة ، التي يمكن - عندما يوجد المنهج الصالح - أن تبلغ بها إلى ذلك المستوى الإنساني الرفيع ، الذي بلغته مرة في تاريخها .. فهي لم تبلغه بمعجزة خارقة لا تتكرر . إنما بلغته في ظل منهج من طبيعته أن يتحقق بالجهود البشرية ، وفي حدود الطاقة البشرية

ولقد اثبت ذلك الجيل الفارع العظيم ، من قلب الصحراء ، الفقيرة الموارد ، المحدودة المقدرات الطبيعية والاقتصادية والعلمية .. وعلى كل ما كان في هذه البيئة من الموافقات المكونة لهذا الانبثاق الخائل العجيب ، فإن البشرية - اليوم وغداً - ليست عاجزة بفطرتها ، ولا عاجزة بمقدراتها ، أن تنجح مرة أخرى في المحاولة ، إذا هي اتخذت ذلك المنهج قاعدة لحياتها .

ولقد ظل هذا المنهج - على كل ما ألم به على مدى الزمن من انحرافات ومن حصومات ومن هجمات - يبعث بنماذج من الرجال ، فيها من ذلك الجيل الأول الفارع مشابهة ؛ وفيها منه آثار وانطباعات .. وظلت هذه النماذج تؤثر في الحياة البشرية تأثيرات قوية ، وتؤثر في خط سير التاريخ البشري ؛ وتترك من حولها ومن ورائها تيارات ودوامات هائلة تطبع وجه الحياة ، وتلون سماتها .

وما يرال هذا المنهج قادرا في كل حين ، على أن يبعث بهذه النماذج ، كلما بذلت محاولة جديدة في تطبيقه وتحكيمه في الحياة . على الرغم من جميع المؤثرات المضادة ، وعلى الرغم من جميع المعوقات من حوله وفي طريقه .

والسر الكامن فيه هو تعامله المباشر مع القطرة ، واستمداده المباشر من رصيدها المكنون . وهو رصيد هائل ، ورصيد دائم وحبيبا التقي مع هذا المنهج تفجرت ينابيع الثرة ، وقاض فيضه المكنون !

واستطاعت هذه العترة أن تقر في واقع الحياة البشرية مبادئ وتصورات ، وقيا وموازين ، لم يسبق أن تقررت في تاريخها كله ، بمثل هذا الوضوح ، وبمثل هذا العمق ، وبمثل هذا الشمول للنشاط الحيوي كله . ولم يقع كذلك أن تقررت هذه المبادئ والتصورات والقيم والموازين في واقع الشريعة مرة أخرى - وفي ظل أي مذهب وأي نظام في الأرض كلها - بمثل هذا الوضوح ، وبمثل هذا العمق ، وبمثل هذا الشمول للنشاط الحيوي كله .. ثم - وهذا هو الأهم - بمثل هذا الصدق والجد والإخلاص والتجرد الحقيقي العميق .

وقد تناولت هذه المبادئ والتصورات . وهذه القيم والموازين ، كل قطاعات الحياة الإنسانية . تناولت تصور البشرية لإلهها ، وعلاقتها به . وتصورها لهذا الوجود الذي تعيش فيه وعلاقتها به ، وتصورها لغاية وجودها الإنساني ومكانها في هذا الكون ووظيفتها ...

كما تناولت - تبعا لذلك - تصورها لحقيقة الإنسان ، وحقوقه وواجباته وتكاليفه ، والقيم التي ترون بها حياته ونشاطه ومكانته ، والتي تقوم عليها علاقاته بربه ، وعلاقاته بأهله ، وعلاقاته بأبناء جسده ، وعلاقاته بالكون والأحياء والأشياء .

ومما تناولته .. الحقوق والواجبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .
والأنظمة والأوضاع والروابط التي تنظم هذه الحقوق والواجبات
وبالمجمل كل قطاعات الحياة الإنسانية في شتى صورها وجوانبها الكثيرة .

وقد رت في هذا كله حكما الذي يفردا ويميزها ، ويجعل لها طابعها
الرباني الفريد ..

وقد تم هذا كله في وسط محلي معادٍ لمثل هذه المبادئ والتصورات ،
ولهنه القيم والموازين .. وفي وسط عالمي منكر لأساس هذه المبادئ
والتصورات والقيم والموازين . وفي ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية
وعقلية ونفسية - عقلية وعالمية - من شأن ظواهرها أن تصادم هذه
الاتجاهات التي قررها الإسلام في واقع الحياة البشرية ، للمرة الأولى ،
أو على الأقل لا تساعد على الحركة الطليقة . معتمدا في نجاحه - قبل
كل شيء - على رصيد الفطرة البشرية من الاستعداد للاستقامة على المنهج
الإلهي - الموافق في صميمه لهذه الفطرة - قبل أن تغشها المؤثرات
السطحية - وعلى استثارة هذا الرصيد ، واستنقاذه من الركام الذي ران
عليه . وهو رصيد ضخيم ، يكفي - حين يوحد المنهج الذي يستنقذه من
التبدد والانطمار - لمقاومة تلك المؤثرات السطحية ، التي يظن بعض قصار
النظر أنها تمثل كل شيء في حياة الإنسان .. والإسلام لا يغفل هذه
المؤثرات ولا يهمل آثارها في الحياة البشرية . ولكنه لا يقف أمامها
مستسلما ، باعتبارها « أمرا واقعا » لا فكاك منه . بل يلجأ إلى استنقاذ
رصيد الفطرة ، وتجميعه ، وتوجيهه ، لتعديل الواقع ، في رفق وتؤدة -
على نحو ما يبينا من طريقته في العمل في الفصل السابق - وينتهي إلى مثل

ما انتهى إليه في تلك الفترة ، في مواجهة تلك الظروف المناوئة ، المحلية والعالمية ، ونحويلها إلى ظروف مواتة . كما حدث بالفعل في الجزيرة العربية ، وهما وراءها كذلك !

والبشرية اليوم قد تكون - في بعض الحوائط - أحسن حالا وظروفا منها يوم حاءها هذا المنهج ، وأحدث فيها - في فترة قصيرة - ذلك الانقلاب الشامل ، وتلك الثورة العظمى - في رفق ويسر وانطلاق - وقد تكون أقدر على العمل بهذا المنهج - للأسباب التي سندبها في فصل ثال - وقد تكون طاقتها اليوم على حملة أكبر وبخاصة حين نعرف أن رصيد الفطرة الإنسانية - على الرغم من كل ما يرسب فوقه من ركام الفساد والشر والانحراف ، وعلى الرغم من كل ما يبدهه ويسحقه من الأوضاع المادية والمؤثرات الاقتصادية والفكرية - قادر على أن يتمض ، ويتجمع ، ويعمل ، حين يفتح المنهج في استنقاذه وتجميعه وتوجيهه ، وإطلاقه في الخط المتناسق مع فطرة الإنسان ، وفطرة الكون ، كما خلقها الله . وأن هذا الرصيد من الأصالة ، والعمق ، والصحة ، بحيث يرحح سائر العوامل الأخرى ، التي تأخذ صورة « الواقع » ... فما نال إذا كان بعض هذه العوامل اليوم في صفه وفي اتجاهه ؟

إن « الواقع » الخارجي يتراءى ، لمن لا يعرفون طبيعة هذا المنهج ، كما لو كان هو الحقيقة التي لا سبيل إلى تغييرها ، ولا سبيل إلى دسرحتها ، ولا سبيل إلى التمرد عليها !

ولكن هذا ليس إلا وهما كبيرا . فالفطرة البشرية « واقع » كذلك . وهي ليست على استقامه مع هذا الواقع الظاهري ، بدليل أنها تشقى به

في مشارق الأرض ومغاربها . وحين تصطدم الفطرة بوضع من الأوضاع ، أو بنظام من النظم ، فقد تغلب في أول الأمر ، لأن وراء هذا الوضع أو هذا النظام قوة مادية تفرضه فرضاً ، ولكن الذي لاشك فيه أن الفطرة أقوى وأثبت من كل وضع طارئ عليها ، ومن كل قوة تسند هذا الوضع الطارئ ولا بد لها من أن تغلب في النهاية . وبخاصة حين يقودها مسيح طبيعته من طبيعتها ..

وقد حدث هذا مرة يوم واجه ذلك المسح الإلهي «واقع» الجزيرة العربية ، وواقع الأرض كلها . فانتصر على هذا الواقع انتصاراً رائعاً ، وبذلك قوائمه التصورية والعملية ، وأقامه على أسس جديدة .

وهذا الذي حدث لم يتم بمعجزة خارقة لا تتكرر . ولكنه نحقق - وفق سنة الله الدائمة - بمجهود بشري ، وفي حدود الطاقة البشرية ... فدللت هذه السابقة على إمكان تكرار هذه الظاهرة .

فما بال إذا كانت التيارات التي أطلقتها تلك الفترة ، والرواسب التي خلفتها ، في حياة البشرية ، وفي الواقع التاريخي ، كلها عوامل مساعدة في المحاولة الجديدة ؟

واستطاعت تلك الفترة أن تفر في حياة البشرية تقاليد عملية ، وأوضاعاً واقعية - تستند إلى تلك المبادئ والتصورات والقيم والموازين - لم تمت وتذهب بانقضاء تلك الفترة . ولكنها امتدت في صورة تيار متحرك ، مندفع إلى مسافات بعيدة في الأرض ، وإلى أحقاب متطاولة

من الزمان . وتأثرت بها الحياة البشرية كلها - على صورة من الصور - وأصبحت رصيذا للبشرية كلها ، تنفق منه وتستمد أكثر من ألف عام .. رصيذا يؤثر في تصوراتها ، ويؤثر في أوضاعها ، ويؤثر في تقاليدها ، ويؤثر في علومها ومعارفها ، ويؤثر في اقتصادها وعمرانها ، ويؤثر في حضارتها كلها تأثيرات متزاوية ، ولكنها مطردة فاعلة في كل ركن من أركان الأرض . وما تزال بقايا من ذلك التيار تعمل في واقع الحياة البشرية حتى اليوم ، على الرغم من جميع القوى التي وقفت في وجه هذا المد الحامر ، وعلى الرغم من النكسة أو النكسات إلى الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية ، في العالم الغربي ، الذي سيطر على مقاليد الأرض أحقابا متطاولة !

وقد استقرت في حياة البشرية من وراء هذه التأثيرات الواقعية مبادئ وقيم ، ونظريات وأوضاع ، قد تجهل البشرية اليوم مصدرها الأصيلي ، وقد ترددها إلى مصادر أخرى غير ذلك المنبع المؤثر . ولكنه ليس من المتعذر معرفة أصلها الأول ، والرجوع بها إلى فعل المنهج الإلهي ، وآثاره في الحياة البشرية . وسنشير في فصل تال إلى بعض الخطوط العريضة التي انتهت البشرية إلى إقرارها اليوم ، وكانت منكرة لها أشد الإنكار يوم جاءها بها الإسلام ، أول مرة ، منذ تيف وثلاثمائة وألف عام !

ولعله من شأن استقرار هذه الخطوط العريضة في حياة البشرية وأوضاعها الحاضرة ، بعد الإنكار الشديد لها يوم جاءها بها الإسلام أول مرة ، أن تكون البشرية اليوم أقرب - بصفة عامة - إلى تفهم هذا المنهج ، وأقدر كذلك على حمله ، ولديها منه رصيد واقعي ، خلفته

موجة المد الأول ، لم يكن لديها يوم جاءها أول مرة ! ولديها كذلك
رصيد من تجاربها الخاصة ، في فترة التيه والشروء عن هذا المنهج ، وما
أصبحت تعانيه اليوم من آثار هذا التيه وهذا الشروء - مما سبقت الإشارة
إليه باختصار - فهذه وتلك قد تكون من العوامل المساعدة على تقبل
المنهج الإلهي ، والصبر عليه في الجولة القادمة ... بإذن الله ..

ولعله يحسن الآن - وقد وصلنا إلى هذا الحد من الإشارات المجملية -
أن نفصلها بعض التفصيل ، بذكر شيء من مدلولاتها الواقعية في الحياة
البشرية ، من خلال الواقع التاريخي ، وبتفصيل شيء عن رصيد الفطرة
الذي واجه به الإسلام واقع البشرية فانتصر عليه ، وقرر منهجه في وجه
ذلك الواقع ..

* * *

رَصِيدُ الْمَطْطَرَةِ

يوم جاء الإسلام أول مرة وقف في وجهه «واقع» ضخم . واقع الجزيرة العربية ، وواقع الكرة الأرضية ! .. وقفت في وجهه عقائد وتصورات ؛ ووقفت في وجهه قيم وموارد ؛ ووقفت في وجهه أنظمة وأوضاع ؛ ووقفت في وجهه مصالح وعصيات ...

كانت المسافة بين الإسلام - يوم جاء - وبين واقع الناس في الجزيرة العربية وفي الكرة الأرضية ، مسافة هائلة شحيحة . وكانت النقلة التي يريدون عليها بعيدة بعيدة ...

وكانت تسند «الواقع» أحقاب من التاريخ ؛ وأنشأت من المصالح ، وألوان من القوى ؛ وتقف كلها سدا في وجه هذا الدين الجديد ؛ الذي لا يكتفي بتغيير العقائد والتصورات ، والقيم والموازين ، والعادات والتقاليد ، والأخلاق والمشارع .. إنما يريد كذلك - وبصر - على أن يعبر الأنظمة والأوضاع ، والشرائع والقوانين ، وتوزيع الأموال والأرزاق . كما بصر على انتزاع قيادة البشرية من يد الطاغوت والجاهلية ، ليردها إلى الله وإلى الإسلام !

ولو أنه قيل لكائن من كان - في ذلك الزمان - إن هذا الدين الجديد الذي يحاول هذا كله ، في وجه ذلك «الواقع» الهائل ، الذي

تسندة قوى الأرض كلها ، هو الذى سيتصر ، وهو الذى سيبدل هذا الواقع فى أقل من نصف قرن من الزمان ، لما لى هذا القول إلا السخرية والاستهزاء والاستنكار !

ولكن هذا «الواقع» المائل الفسخم ، سرعان ما تزحج عن مكانه ، ليخليه للواقع الجديد . وسرعان ما تسلم القائد الجديد مقادة الشريعة ليخرجها من الظلمات إلى النور ، ويقودها بشريعة الله ، تحت راية الإسلام !

كيف وقع هذا الذى يبدو مستحيلا فى تقدير من يهرهم «الواقع» ويسحقهم ثقله ، وهم يزنون الأمور والأوضاع ؟ ! .

كيف استطاع رجل واحد . محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. أن يقف وحده فى وجه الدنيا كلها ، أو على الأقل فى وجه الجزيرة العربية كلها فى أول الأمر؟ أو على الأقل فى وجه قريش سادة العرب كلهم فى منشأ الدعوة؟ وأمام تلك العقائد والتصورات ، والقيم والموازين ، والأنظمة والأوضاع ، والمصالح والعصبيات .. ثم يتصر على هذا كله ، ويبدل هذا كله ، ويقم النظام الجديد ، على أساس المبعج الجديد ، والتصور الجديد؟

إنه لم يتملق عقائدهم وتصوراتهم ، ولم يداهن مشاعرهم وعواطفهم ، ولم يهادن آفئهم وقيادتهم .. لم يتمسكن حتى يتمكن .. إنه أمر أن يقول لهم منذ الأيام الأولى ، وهو فى مكة ، تنأب عليه جميع القوى :

« قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد .
ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي
دين » ..

فلم يكتف بأن يعلن لهم افتراق دينه عن دينهم ، وعبادته عن
عبادتهم ، ومفاصلتهم في هذا مفاصلة كاملة لالتقاء فيها . بل أمر كذلك
أن ييشعهم من إمكان هذا اللقاء في المستقبل . فكرر عليهم : « ولا أنا
عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » .. وباطراد المفاصلة في هذا
الأمر ، الذي لا التقاء فيه ! « لكم دينكم ولي دين » ..

وهو كذلك لم يبرهم بادعاء أن له سلطانا سريا ، ولا مرايا غير
بشرية ولا موارد سرية بل أمر أن يقول لهم :

« قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا
أقول لكم إني ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلي » .. (الأنعام : ٥٠)

ولم يوزع الوعود بالمناصب والمغانم لمن يتبعونه ، حين يتصر على
مخالفته : قال ابن إسحاق : « كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعرض
نفسه على القبائل في الموسم - موسم الحج - يقول : « يا أي فلان - إني
رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا
ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي ،
وتحفظوني حتى أبين عن الله ما بعثني به »

قال ابن إسحاق : وحدثني الزهري : أنه أتى بني عامر بن
صحصصة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه فقال رجل

مهم يقال له : ببجرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفقى من قريش لأكلتُ به العرب ! ثم قال له : أدأيت إن نحن بابعدناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالعت ، أياكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : « الأمر الله يضعه حيث يشاء » . قال : فقال له ، أفتهدف بحورنا للعرب ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ! فأبوا عليه ..

كيف إذن وقع الذى وقع ؟ كيف قوى ذلك الرجل الواحد على قهر كل ذلك « الواقع » ؟

إنه لم يقهره بمعجزة خارقة لا تتكرر . فقد أعلن - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يعمل فى هذا الحقل بمارقة ، ولم يستجب - مرة واحدة - لطلهم للخوارق .. إنما وقع الذى وقع وفق سنة دائمة تتكرر كلما أخذ الناس بها واستجابوا إليها ..

لقد وقع الذى وقع من غيبة هذا المنهج ، لأنه تعامل - من وراء الواقع الظاهرى - مع رصيد الفطرة المكنون . وهو رصيد - كما أسلفنا - ضخم هائل ، لا يغلبه هذا الركام الظاهرى ، حين يُستنفذ ويُجمع ويوجه ، ويُطلق فى اتجاه مرسوم !

كانت المعتقدات الفاسدة والمعرفة ترس على ضمير البشرية . وكانت الآلهة الزائفة تزحم فناء الكعبة كما تزحم تصورات الناس وعقولهم وقلوبهم . وكانت المصالح القبلية والاقتصادية تقوم على كواهل هذه الآلهة الزائفة ، وما وراءها من سدانة وكهانة ، ومن أوضاع فى حياة الناس ،

مستمدة من توزيع حصائص الألوهية بين العباد ، وإعطاء السدة
والكهنة حق الاشتراع للناس ، ووضع مذهب الحياة !!!

وجاء الإسلام يواحه هذا « الواقع » كله بلا إله إلا الله ، ويخاطب
المفطرة التي لا تعرف لها إلها إلا الله . ويعرف الناس برهم الحق ،
وحصائصه وصفاته التي تعرفها فطرتهم من تحت الأنقاض والركام .

« قل : أعير الله أفخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا
يطعم ؟ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من
المشركين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من
يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن أمسك الله
يضر فلا كاشف له إلا هو . وإن أمسك نحر فهو على كل شيء قدير
وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير . قل : أي شيء أكبر
شهادة ؟ قل : الله شهيد بيبي وبينكم ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم
به ومن بلغ . أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد .
قل : إنما هو إله واحد ، وإني برئ مما تشركون »

(الأنعام ١٤ - ١٩)

« قل : إني نهيئت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل : لا
أتبع أهواءكم قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . قل : إني على بينة
من ربي ، وكذبتم به ، ما عندي ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله ،
يقص الحق وهو خير الفاصلين . قل : لو أن عندي ما تستعجلون به
لقضى الأمر بيبي وبينكم ، والله أعلم بالظالمين . وعنده مفاتيح الغيب لا
يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا

يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض . ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذى يترقاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه يُقضى أجل مسمى . ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم عما كنتم تعملون ، وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة . حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين . قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون . قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويثيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ...

(الأعام : ٥٦ - ٦٥)

واستمعت المطرقة إلى الصوت القديم . الذى يحاطبها من وراء ركام الواقع الثقيل ، فى التيه المريض . وثابت إلى إلهها الواحد . وانتصرت الدعوة الجديدة على الواقع الثقيل !

وعندما ثاب الناس إلى إله واحد . امتنع أن يعبد الناس الناس ووقف الجميع رافعى الرؤوس أمام بعضهم البعض . يوم انحنت كل الرؤوس للإله الواحد القاهر فوق عباده . وانتهت أسطورة الدماء المتفاضلة ، والأجاس المتفاضلة ، وورثة الشرف والحكم والسلطان ..

ولكن كيف وقع هذا ؟

لقد كان هناك « واقع » اجتماعي - وراءه مصالح طبقية وعنصرية ،
مادية ومعنوية . واقع سائد في الجزيرة العربية ، وسائد في الأرض من
حوطا واقع ليس محل اعتراض أحد ، لأن المتضمن به لا يسأموه ،
والراحين تحته لا ينكروه !

كانت قريش تسمى نفسها « الحمير » وتعرض لنفسها حقوقا وتقاليد
ليست لسائر العرب . وتقف في الحج بالمدلفة حين يقف الناس جميعا
بعرفات ! ويقيمون على هذه الامتيازات منافع اقتصادية بفرضوها على
سائر العرب . فيحتمون عليهم ألا يطوفوا بالبيت إلا في ملابس يشترونها
من قريش ؟ وإلا طافوا بالبيت عراة ؟

وكانت الأرض كلها من حول الجزيرة نصح بالفرقات القائمة على
اختلاف الدماء والأجناس وتفاضلها .

« كان المجتمع الإيراني مؤسسا على اعتبار النسب والحرف وكان بين
طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر . ولا تصل بينها صلة
وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقارا لأمر أو
كبير . وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي
منحه سبه . ولا يستشرف لما فوقه . ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير
الحرفة التي خلقه الله لها . وكان ملوك إيران لا يولون وظيفيا من
وظائفهم . وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا
واضحا ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع »^(١)

(١) عن كتاب إيران في عهد الساسانيين تأليف البروفيسور أورتر سين نقلًا عن كتاب
ماذا حصر العالم باحفظ المسمى للأستاذ السيد أبو الحسن الندوي

«وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجرى في عروقهم دم إلهي . وكان الفرس ينظرون إليهم كأئمة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً . فكانوا يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ، لا يجرى اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحدهم في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم . وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وقتلات نعمتهم فإنما هو صدقة وتكرم ، من غير استحقاق ، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة . وخصصوا بيتاً معيناً - وهو بيت الكيافي - فكانوا يعتقدون أن لأفرادهم وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ، ويحبوا الخراج . وهذا الحق ينتقل فيهم كابراً عن كابر ، وأباً عن جد ، لا ينارعههم ذلك إلا ظالم ، ولا ينافسهم إلا دعيّ نذل . فكانوا يديون بالملك وبالوراثة في البيت المالك ، لا يبخون به بدلاً ، ولا يرون عه محيصاً . فإذا لم يمدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً وإذا لم يمدوا رجلاً ملكوا عليهم امرأة . فقد ملكوا بعد «شرويه» ولده «أردشير» وهو ابن سبع سنين . وملك «فرخ زاد خسرو» بن كسرى أسرويز» وهو طفل . وملكوا بوران بنت كسرى . وملك كذلك ابنة كسرى ثابئة يقال لها : «ارري دخت» ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائداً كبيراً ، أو رئيساً من رؤسائهم ، مثل «رستم» و «جبابان» وغيرهما لأنهم ليسوا من البيت الملكي !»^(١)

(١) عن كتاب ماذا حصر العالم بأخطا المسلمين للسيد أبو الحسن الندوي .

وكان نظام الطبقات في الهند من أعنف وأبشع ما يصنع الإنسان بالإنسان .

« وقبل ميلاد المسيح ثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم حديد للمجتمع الهندي ، وألف فيه قانون مدني سياسي اتفق عليه ، وأصبح قانونا رسميا ، ومرجعا دينيا . في حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن : «منوشاستر» ..

« يقسم هذا القانون الأهالي إلى أربع طبقات متميزة . وهي :
(١) البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين (٢) شترى . رجال الحرب
(٣) ويش : رجال الزراعة والتجارة . (٤) شودر : رجال الخدمة
ويقول «مو» مؤلف هذا القانون :

« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشترى من سواعده ويش من أفخاذه ، والشودر من أرحله ! ووزع لهم فرائض وواجبات لصالح العالم . فعلى البراهمة تعليم «ويد»^(١) أو تقديم النذور للآلهة ، وتعاطي الصدقات . وعلى «الشترى» حراسة الناس ، والتصديق وتقديم النذور ودراسة «ويد» والعزوف عن الشهوات . وعلى «ويش» رعى السائمة والقيام بخدمنها وتلاوة «ويد» والتجارة والزراعة . وليس «لشودر» إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث !
«وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا ألحقهم

(١) الكتاب المقدس .

بالآلهة فقد قال . إن البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وإن
ما في العالم هو ملك لهم ، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم
أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر - من غير جريرة - ما شاءوا . لأن
العبد لا يملك شيئا ، وكل ماله لسيده . وأن البرهمن الذي يحفظ «رك
ويد» (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له ، ولو أباد العوالم الثلاثة
بلذوبه وأعماله : ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة
أن يجبي من البراهمة جناية ، أو يأخذ منهم إقاوة ، ولا يصح لبرهمن في
بلادهم أن يموت جوعا ، وإن استحق برهمن القتل ، لم يجز للحاكم إلا
أن يخلق رأسه ، أما غيره فيقتل !

«أما الشترى فإن كانوا فوق الطبقتين (ویش وشودر) ولكنهم دون
البراهمة بكثير . فيقول : «منو» إن البرهمن الذي هو في العاشرة من عمره
يقوق الشترى الذي ناهز مئة ، كما يقوق الوالد ولده !

«أما شودر «المبودون» فكانوا في المجتمع الهندي - بنص هذا القانون
المدنى الدينى - أحط من البهاثم ، وأذل من الكلاب . فيصرح القانون
سأن «من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة ، وليس لهم أجر أو
نواب بغير ذلك . وليس لهم أن يقتنوا مالا ، أو يدخروا كنزا فإن ذلك
يؤذى البراهمة ! وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمن يدا أو عصا ليضطش
به قطعت يده ، وإذا رفعه في غضب فدعت رجله ، وإذا هم أحد
من المنبوذين أن يجالس برهمنيا قتل الملك أن يكوى إسته ، أو يجرمه
ويسفيه من البلاد . وأما إذا مسه بيد ، أو سبه ، فيقتلع لسانه . وإذا
ادعى أنه يعلمه سقى ديتا فائرا . وكفارة قتل الكلب والقطعة والضفدعة

والورغ والعرب واليومه . ورحل من الطبقة المنبوذة ، سواء !!!^(١) »
أما الحضارة الرومانية الشهيرة فقامت على أساس الترف ، الذي يوفره
ثلاثة أرباع سكانها من العبيد . للربع الباقي من الأشراف ! وعلى أساس
التفرقة فيصوص القانون بين السادة والعبيد . وبين الطبقات الكريمة
والرضيعة :

جاء في مدونة جوستنيان القانونية الشهيرة :

« ومن يسنو أرملة مستقيمة أو عذراء ، فعقوبته - إن كان من بيعة
كريمة - مصادرة نصف ماله . وإن كان من بيعة ذميمة فعقوبته الخلد
والنق من الأرض »^(٢)

وبينا كان هذا « الواقع » سائدا في الأرض كلها ، كان الإسلام
يخاطب « الفطرة » من تحت ركام الواقع . الفطرة التي تنكر هذا كله ولا
تعرفه . وكانت استجابة الفطرة لتداء الإسلام أقوى من هذا الواقع
الثقيل .

استمعت الفطرة إلى الله - سبحانه - يقول للناس جميعا :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ..

[الحجرات : ١٣]

(١) المصدر السابق .

(٢) ص ٣١٧ ترجمة عبد العزيز فهمي

واستمعت إليه - سبحانه - يقول لقريش خاصة : « ثم أفيضوا من
حيث أفاض الناس » ...

[البقرة : ١٩٩]

واستمعت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول للناس
جميعا : « أيها الناس . إن ربكم واحد . وإن أباكم واحد . كلكم لآدم
وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربي على
عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض
على أحمر فضل إلا بالتقوى » .

واستمعت إليه يقول لقريش خاصة :

« يا معشر قريش . اشترُوا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا
ويا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد
المطلب ، ما أغني عنك من الله شيئا . يا فاطمة بنت محمد : سليني ما
شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » .

[متفق عليه]

استمعت الفطرة إلى النداء المستجاب ، وأزاحت عنها ركام « الواقع »
وانطلقت مع المنهج الإلهي .. ووقع ما وقع وفق سنة الله المطردة ،
القابلة للوقوع في كل حين

...

وكان النظام الربوي هو السائد في الجزيرة العربية ، وعليه يقوم
اقتصادها الأساسي . ولا يحسن أحد أنها كانت مجرد معاملات فردية في

حدود ضيقة . فقد قامت لقريش تجارة ضخمة مع الشام في رحلة الصيف ، ومع اليمن في رحلة الشتاء . وكانت توظف في هذه التجارة رؤوس أموال قريش . ولا يجوز أن نسي أن قافلة أبي سفيان التي ترصد لها المسلمون في عزوة بدر . ثم أفلت منهم ، وقسم الله لهم ما هو خير منها ، كانت تحوى ألف بعير موسوقة بالبضائع ! ولو كان الربا مجرد معاملات فردية محدودة ، لا نظاما شاملا للحياة الاقتصادية ما استحق من الله سبحانه . هذه الحملة المفرعة المتكررة في القرآن ، ولا متابعة تلك الحملة من الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حديثه !

هذه الأموال ، وهذه الحركة التجارية ، وهذا الاقتصاد الذي يقوم عليها ، كان يقوم كنه على أساس النظام الربوي وفيه تجمعت اقتصاديات البلاد تقريبا قيل النعثة . فكذلك كانت تقوم الحياة في المدينة . وأصحاب اقتصادها هم اليهود . والربا قاعدة اقتصاد اليهود ! وكان هذا « واقعا » اقتصاديا يقوم عليه حياة البلاد !

ثم جاء الإسلام .. جاء ينكر هذا الأساس الظالم الحارم ، ويعرض بدله أساسا آخر : أساس الركاة والفرص الحسن والتعاون والتكافل .

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية . فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون . الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ، وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب

النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويربى الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، لهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذرُوا ما بَقِيَ من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فإذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن كنتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

[البقرة : ٢٧٤ - ٢٨١]

ووجدت الفطرة أن دعوة الله خير مما هي عليه . واشتأزت من الأساس الطابط الذي يقوم النظام الربوي عليه . ومع مشقة الانتقال في الأوضاع الاقتصادية التي تقوم عليها حياة الناس ، فقد كانت استجابة الفطرة أقوى من ثقل «الواقع» . وتطهر المجتمع المسلم من تلك اللوثة الجاهلية . وكان ما كان . وفق سنة الله التي تتكرر كلما دعيت الفطرة فانتفضت من تحت الركाम والأفئاض !

ونكتفي في هذا الفصل بهذه الأمثلة الثلاثة من مغالبة الفطرة للواقع ، وانتفاضها من تحت الركام والأفئاض ، وانتصارها على الواقع الخارجي الذي أنشأته الجاهليات .. وهي تمثل واقع العقيدة والتصور . وواقع الأوضاع والتقاليد . وواقع الاقتصاد والتعامل . وهي أقوى ألوان

«الواقع» الذى يراه من لا يدركون قوة العقيدة ، وقوة الفطرة ، وكأنه هو الحقيقة الساحقة التى لا قبل بها لفطرة ولا عقيدة !

إن الإسلام لم يقف مستسلماً عاجزاً مكتنوف اليدين أمام هذا «الواقع» . ولكنه ألغاه ، أو بدله ، وأقام مكانه بناء السامق المصريد ، على أساسه القوى العميق .

وما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى . فقد حدث ما حدث وفق سنة حارية ، لا وفق معجزة خارقة . وقد قام ذلك البناء على رصيد الفطرة المدخر لكل من يستفد هذا الرصيد ، ويجمعه ، ويوجهه ، ويطلقه فى اتجاهه الصحيح .

والبشرية اليوم قد تكون أقدر على هذا الانعاه الصحيح بما استقر فى تاريخها وفى حياتها من آثار ذلك المد الأول ، الذى واجهه أفسى المعارضة . ثم انساح فى طريقه ، وحلف من بعده أعماق الآثار .

* * *

رَصِيدُ التَّجَرُّبَةِ

عندما واجه الإسلام الشربة - أول مرة - كان يواجه هذا الواقع برصيد الفطرة وحده . كان رصيد الفطرة مع هذا الدين ، على الرغم من الأحيال الطويلة التي انقضت وهي تراكم فوقه أنقاض الواقع الجاهل العريض . ولكن أنقاض الفطرة كان أقوى من كل ذلك الركام . وكانت استجابة الفطرة كافية لنقص ذلك الركام .

وكانت تلك الفترة العجيبة . وكانت تلك القمة السامقة . وكان ذلك الجبل الفارع . وكانت تلك المنارة الوضيئة . كانت - كما قلنا - قدرا من أقدر الله ، وتدبرا من تدبيره ، تتجسم هذه الصورة الفريدة ، في أوصاف حياة واقعية ، يمكن - فيما بعد - الرجوع إليها في صورتها الواقعية . ومحاولة تكرارها على مدى الزمن ، بقدر ما نهيأ لها البشرية . إنها لم تكن ثمرة طبيعية لبيئتها - وقتذاك - ولكنها كانت ثمرة الرصيد المتجمع للفطرة ، عندما وجدت المهج والقيادة والتربية والحركة التي تجمع هذا الرصيد وتدفعه هذه الدفعة القوية .

ولكن البشرية - بحملتها - لم تكن قد نيات بعد للاستقامة طويلا على تلك القمة السامقة التي تسميها تلك الجماعة المختارة على عين الله . فلما اساح الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها بتلك السرعة العجيبة

التي لم يعرف لها التاريخ نظيراً ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ،
وأصبحت كثرة الأمة الإسلامية ليست هي التي نلت تلك الثرية العريضة
العميقة البطيئة التي نلتها الجماعة المختارة ..

لما وقع هذا كله أخذ ضغط الرواسب الجاهلية في نفوس الجماهير
الضعيفة ، والكثرة الكاثرة في جموع الأمة التي دانت للإسلام «يثقل»
ويجذب الجسم كله من تلك القمة السامقة ، إلى الأرض المستوية !
الجسم الذي لا يرفعه إلى تلك القمة السامقة إلا الوثبة الكبرى ، التي
وثبها تلك الجماعة المختارة ، بدفعة الثرية الفريدة العميقة البطيئة ، التي
جمعت رصيد الفطرة وأطلقته في هذا الاتجاه المعيد !

ومن ثم استوى المجتمع المسلم .. قرابة ألف عام .. لا على تلك القمة
السامقة ، ولكن في مستويات متفاوتة ، كلها أرفع من مستويات
المجتمعات الأخرى في أرجاء الأرض ، وذلك مع استمداد تلك
المجتمعات من ذلك المجتمع الرفيع ، كما شهد التاريخ المنصف وما أقل
التاريخ المنصف !

...

تلك الوثبة الكبرى الفريدة في تاريخ البشرية ، وهذه الألف عام
من المستويات الرفيعة .. لم تذهب كلها سدى ، ولم تنل من عالم الحياة
ضياعاً ، ولم تترك البشرية بعدها كما تسلمنا من قبل

كلا ! فليس ذلك من سنة الله في الحياة والناس . فالشرية وحدة
مناسكة على مدار الزمان ، وجسم البشرية جسم حي ؛ يتفتح براد

التجارب ، ويدحر رصيد المعرفة . ومهما تجمع فوقه ركام المجهلية التي ارتدت إليها البشرية ، ومهما ران عليها العمى والظلام ، فإن الرصيد باق مكتون ، بل هو سار في الحسم على العموم !

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام في المرة الأولى ، لم تجد إلا رصيد الفطرة تواجه به واقع الشرية (وذلك دون أن تعقل الرصيد الضئيل المتبقى كالذبالة من بقايا الرسائل الأولى التي كانت رسالات في أقوام ، ولم تكن للبشر كافة كالإسلام) فإنها اليوم تجد إلى جانب رصيد الفطرة المكسور ، رصيد الموجة الأولى لهذا المنهج الإلهي في حياة البشرية جمعاء - من آمن بالإسلام ، ومن دخل في حكم الإسلام ، ومن تأثر على البعد بالمد الإسلامي العريض - كما تجد رصيد التجارب البشرية المريرة ، التي عانتها في اليه ، حين بعدت عن الله ، وعانت في ذلك اليه مرارة الحياة !

والمبادئ والتصورات ، والقيم والموارد ، والنظم والأوضاع ، التي واجه بها الإسلام البشرية أول مرة وليس معه إلا رصيد الفطرة فأنكرتها أشد الإنكار ، وتنكرت لها كل التنكر ، وقاومتها كل المقاومة ؛ لأنها - يومذاك - كانت غريبة كل الغربة ؛ وكانت المسافة بينها وبين واقعها حقيقة هائلة .

هذه المبادئ والتصورات ، والقيم والموارد ، والأنظمة والأوضاع ، قد استقرت في حياة جماعة من البشر - وهي في صورتها الكاملة - فترة من الزمان . ثم استقرت في حياة العالم الإسلامي العريض - في مستويات متفاوتة - فترة طويلة أخرى . ثم عرفت في حياة

الجماعة البشرية كلها تقريبا ، خلال سبب وثلاثمائة وألف عام . عرفت على الأقل دراسة ورؤية وفرجة ! إن لم تعرف مزاولة وعملا وتجربة ! ومن ثم لم تعد غريبة - على البشرية - كما كانت يوم جاءها بها الإسلام أول مرة . ولم تعد منكورة في حسنها وعرفها كما كانت يومذاك !

حقيقة إن البشرية لم تتذوقها قط ، كما تذوقتها الجماعة المختارة ، وفي تلك الفترة الفريدة . وحقيقة إنها حين حاولت تطبيق بعضها في أرملة متفاوتة - بما في ذلك العصر الحديث - لم تدرك روحها قط ، ولم تطبقها بهذه الروح . وحقيقة إنها - حتى اللحظة - ما تزال تطلع وهي تدرج في المرتقى الذي وثبت إليه الجماعة المسلمة الأولى ..

كل هذا صحيح . ولكن البشرية مجملتها - من الناحية التصورية الفكرية - قد تكون أقرب إلى إدراك طبيعة ذلك المنهج ، وأقدر على حمله كذلك . منها يوم جاءها أول مرة ، غريبا عنها كل الغرابة .

والأمثلة المحددة تقرب هذه الحقيقة وتوضحها . ونحن نكتفي بذكر القليل منها دون الإحاطة بها . وذلك لأعتبارين هامين :

أولهما : طبيعة هذا البحث المجمل المختصر ، الذي لا يزيد على أن يكون مجرد إشارات دالة إلى عناصر الموضوع الكبير الذي يتناوله موضوع « هذا الدين » .

وثانيهما : أن الخطوط العريضة التي تركتها موجة المد الطويلة لهذا

المنهج ، في حياة البشرية كلها ، وفي أنحاء الأرض جميعاً ،
أكثر عدداً ، وأصغهم أثراً ، وأوسع مساحة ، من أن يحيط
بها كاتب واحد ، في بحث واحد ، وفي عصر واحد . فهذه
الأثار قد ترسست في حياة البشرية كلها ، منذ ذلك العهد
البعيد ، وشملت حياة البشرية كلها على نطاق واسع ؛
ونأثرت به جوانب قد لا تكون كلها ظاهرة ، وقد لا تكون
كلها بما سجلته الملاحظة .

وإنه يمكن القول - على وجه الإجمال - أن هذه الظاهرة الكونية ،
التي تجلت على هذا الكوكب الأرضي ، وتمت في حياة هذه البشرية ..
وهي ظاهرة هذا الدين .. لم تدع جانباً واحداً من حياة البشرية منذ
ذلك التاريخ ، إلا وتجلت فيه وتركت فيه تأثيراً متفاوت درجاته ،
ولكنه واقع لا شك فيه . وإن كل حركة من حركات التاريخ الكبرى قد
استمدت مباشرة أو غير مباشرة من ذلك الحدث الكبير ؛ أو - بتعبير
أصح - من هذه الظاهرة الكونية الضخمة

إن حركة الإصلاح الديني ، التي قام بها مارتين لوتر وكالمن في
أوربا . وحركة الإحياء التي تفتت منها أوربا حتى اليوم - وحركة تحطيم
النظام الإقطاعي في أوربا ، والانطلاق من حكم الأشراف . وحركة
المساواة وإعلان حقوق الإنسان التي تجلت في الماچنا كادوتا في إنجلترا
والثورة الفرنسية في فرنسا . وحركة المذهب التجريبي التي قام عليها مجد
أوربا العلمي ، وانبعثت منها الفتوحات العلمية الهائلة في العصر

الحديث .. وأمثالها من الحركات الكبرى ، التي يحسبها الناس أصولاً في التطور التاريخي .. كلها قد استمدت من ذلك المد الإسلامي الكبير ، وتأثرت به تأثراً أساسياً عميقاً ..

حاء في كتاب «ضحى الإسلام» للدكتور أحمد أمين :

«ظهر بين الصاري نزعات يظهر فيها أثر الإسلام - من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي - أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين - ظهرت في سبمانيا (Septimania)^(١) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القس وأن ليس للقس حق في ذلك ، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم . والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار . فطبعي ألا يكون فيه اعتراف !

وكذلك قامت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclasts) . ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع للميلاد - أي في القرن الثالث والرابع الهجري - ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل . فقد أصدر الإمبراطور الروماني «ليو» الثالث أمراً سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمر آخر في سنة ٧٣٠ بعد الإتيان بهذا وثنية . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع . على حين كان البابا «جريجوري الثاني والثالث» و «جرمانوس» بطريرك القسطنطينية ، والإمبراطورة «إيريني» من مؤيدي عبادة الصور . وجرى بين الطائفتين نزاع شديد ، لا محل لتفصيله . وكل ما يريد أنه نذكره أن

(١) سبمانيا مقاطعة مرسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .

بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام. ويقولون إن كلوديوس (Cloudius) أسقف تورين (الذي عين سنة ٨٢٨م وحول ٢١٣هـ) والذي كان يحرق الصور والصليبان ، وينهى عن عبادتها في أسقفية ولد ورنى في الأندلس الإسلامية .

... «كذلك وجدت طائفة من النصارى ، شرحت عقيدة الثليث بما يقرب من الوجدانية ، وأبكرت ألوهية المسيح^(١) .

وحيثما عادت جيوش الصليبيين المتبررة مرتدة عن الشرق الإسلامي في القرن الحادى عشر الميلادى ، عادت ومعها صورته من حياة المجتمع الإسلامى . وعلى كل ما كان قد وقع من الانحرافات في هذا المجتمع ، فإن الظاهرة البارزة فيه - بالقياس إلى ذلك القطيع الصليبي المتبرر - كانت ظاهرة الشريعة الواحدة ، التي يخضع لها الحاكم والمحكوم ، والتي لا تستمد من إرادة الشريف أو هوى صاحب الإقطاعية - كما كان الحال في أوروبا ؛ وظاهرة الحرية الشخصية في اختيار نوع العمل ومكان الإقامة ، وظاهرة الملكية الفردية وحرية الاستثمار ؛ وظاهرة انعدام الطبقة الوراثية واستطاعة كل فرد في أى وقت أن يرتفع بدرجة في المجتمع وفق جده واجتهاده وعمله . هذه الظواهر البارزة ، التي لا تخطئها عين الأورفي

(١) ضحى الإسلام ص ١٦٤ - ١٦٥

الذى كان يعيش فى نظام الإقطاع ، رقيقا للأرض ، قانونه هو إرادة السيد ، وطبقته حتمية لأن «الشرف» وراثى !

ومن هنا - بمساعدة العوامل الاقتصادية الأخرى فى حياة المجتمع الأوربى - انطلقت الصيحات التى حطمت النظام الإقطاعى تدريجيا ، وأعلنت تحرير الأفراد من رق الأرض . وإن لم تحررهم من سائر القيود الأخرى . ولم ترفع مجتمعهم إلى مستوى المجتمع الإسلامى !

ومن جامعات الأندلس ، ومن تأثير حضارة الشرق الإسلامى ، التى أصبحت حضارة عالمية ، ومن الترححات الأوربية لتراث العالم الإسلامى انبثقت حركة الإحياء الأوربية فى القرن الرابع عشر وما تلاه . وانبثقت كذلك الحركة العلمية الحديثة ، وبخاصة الطريقة التجريبية :

يقول «بريفولت» مؤلف كتاب : «بناء الإنسانية» :

(Making of Humanity) .

«لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية^(١) على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة التضج .. إن العبقرية التى ولدتها

(١) يلاحظ أن الكتاب العربى يحرصون على تسمية الحضارة الإسلامية باسم الحضارة العربية . وذلك عن حث ومكر منهم . فكلمة إسلامية . ثقيلة على قلوبهم وهم بهذا يريدون حصر الإسلام فى العربية . والإسلامية أوسع من هذا النطاق الضيق الضعيف . وهم يريدون كذلك إحياء المصرية البغيضة بين الجماعات الإسلامية . التى أمانها الإسلام وكلها أعراض مأكرة حيثة ! ! !

ثقافة العرب في أسبانيا ، لم تهض في عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام . ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة . فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون . في نشأة تلك الطاقة ، التي تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة . وفي المصدر القوى لازدهاره : أي في العلوم الطبيعية ، وروح البحث العلمى .

ويستطرد فيقول .

«إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مذهبة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا : إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علومًا أجنبية ، استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تنألقم في يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجا كليًا بالثقافة اليونانية وقد نظم اليونان المذاهب . وعمموا الأحكام ، ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث في دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبي .. كل ذلك كان غريبًا تمامًا عن المراجع اليوناني . أما ما ندعو «العلم» فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من

الاستقصاء مستحدثة . من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان .. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي^(١) .

وقبل ذلك يقول :

« وإن » ردجر بيكون « درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة » أكسفورد « على خلقاء معلميه العرب في الأندلس . وليس له » ردجر بيكون « ، ولا لسميه » فرنسيس بيكون « الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن ردجر بيكون ، إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف المائل لأصول الحضارة الأوربية . وقد كان منهج العرب في عصر » بيكون « قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لطف على تحصيله في ربوع أوربا .

« من أين استقى » ردجر بيكون « ما حصله من العلوم ؟

« من الجامعات الإسلامية في الأندلس . والقسم الخامس من كتابه (Cetus Majus) الذي خصصه للبحث في البصرييات ، هو في

(١) عن كتاب » تحديد التفكير الديني في الإسلام « تأليف الفيلسوف محمد إقبال وترجمة الأستاذ عباس محمود ص ١٤٩ - ١٥٠ .

حقيقة الأمر نسخة من كتاب « المناظر لابن الهيثم »^(١) .

ويقول دبير الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه : « التراع بين العلم والدين » :

« نحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم ؛ وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم ، الأسلوب التجريبي ، والدستور العملي الحسي .

« إن نتائج هذه الحركة العملية تظهر جلية في التقدم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم ، وإثنا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العملية ، ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية - الذي يعتبر مذهباً حديثاً - كان يدرس في مدارسهم . وقد ذهبوا فيه إلى أبعد مما وصلنا إليه . وذلك بتطبيقه على الجوامد والمعادن^(٢) .. وقد استخدموا علم الكيمياء في

(١) المصدر السابق ص ١٤٨ من الترجمة العربية .

(٢) يجب الاحتراز من مثل هذا القول ، الذي يلقيه المؤلفون الغربيون ، في معرض إصاحهم للإسلام والتفكير الإسلامي . فذهب النشوء والارتقاء كما قرره دارون وولاس ، شئ آخر غير ما قرره المسلمون في بحثهم العلمي المؤسّس الذي من لؤة الهروب من الكنيسة ومن إله الكنيسة في العالم الغربي ! وقد لاحظ علماء المسلمين التدرج بين مراتب الخلائق . وبدأوا من صفات المادة الجامدة ورأوا أنها تنتهي عند أول مراتب الحياة النباتية ورأوا أن هذه تنتهي عند أول مراتب الحياة الحيوانية ثم تترقى هذه الحياة . ولكنهم ردوا كل ذلك إلى تقدير الله وقاعلة الله . أما دارون فقد =

الطب ، ووصلوا في علم الميكانيكا إلى أنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة ، ووصلوا في نظريات الضوء والإبصار إلى أن غيروا الرأي اليوناني القائل بأن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي ، وقالوا بالعكس . وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الأشعة وانكسارها . وقد اكتشف الحسن ابن الهيثم الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو ، وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهر حقيقة في الأفق ، وكذلك رآهما في المغرب بعد أن يعبأ بقليل ^(١)

وسكتني بهذا القدر من الآثار الواقعية للمنهج الإسلامي وللحياة الإسلامية ، في تاريخ البشرية ، وفي الحركات العالمية الكبرى . نكتفي

= حرص على نفي تدخل أي عنصر عيسى في النشوء والارتقاء لأنه كان هارياً من الكنيسة ومن إله الكنيسة الذي يأمه تضهد العلم والبحث العلمي على الإحلاق .. كذلك لم تنطرق إلى بحوث علماء المسلمين لومة تحقير الإنسان وتبريده من كل عنصر روحي ورده إلى أصل حيواني . فالنظرية الإسلامية صريحة في أن الإنسان خلق مستقل . وإن كان يحل على فئة مراتب الكائنات الحية من حيث تكونه العضوي واستعداداته العقلي والروحي . ولكنه كان هكذا لأن الله سبحانه أنشأه ابتداءً كما أنشأ سائر المخلوقات في مراتبها التي وجدت عليها .. فهناك غارق كبير في أصل النظرة مع سبق المسلمين في البحث العلمي .

(١) عن كتاب : الإسلام دين علم لخالد للأستاذ محمد فريد وجدى ص ٢٢٢ طبعة ثانية .

بهذا القدر بوصفه مجرد إشارة إلى هذه الحقيقة الضخمة الممتدة الأطراف التي كثيرا ما نساها ، ونحن نشهد البناء الحضارى الراهن ، ونجبل إليها - في سذاجة وغفلة - أنه لا غصيب لنا فيه ، ولا أثر لنا في نشأته ، وأنه شيء أصخم منا ومن تاريخنا الذي نجهله مع الأسف الشديد ، ثم نتلقاه من أمواه أعدائنا ، الذين لا هم لهم إلا أن يملأوا قلوبنا باليأس من إمكان الحياة الإسلامية ، وفق المنهج الإسلامى . وهم أصحاب مصلحة في هذا اليأس ، لأنه يؤمنهم من الكرة عليهم ، ومن استرداد رمام القيادة العالمية منهم .. فما بالتأ نحن ياترى نتلقف ما يقولونه ، ونتردده كالبيغاوات والقروء ؟

وعلى أى فهذا ليس موضوعا هنا . إنما نحن نمهد بهذه الإشارة إلى إشارة أخرى نحو الخطوط العريضة التي خطها المد الإسلامى الأول ، وعرفها للبشرية . فأصبحت الشريعة اليوم أقدر على إدراكها وتصورها . وهى الرصيد الحديد الذى يضاف إلى رصيد العطرة القديم !

* * *

خُطُوطٌ مُسْتَقَرَّة

عندما انحسرت موجة المد الإسلامي العالية عن هذه الأرض ، وحينما استردت الجاهلية رماس القيادة ، التي كان الإسلام قد انتزعها منها ، وعندما عماد الشيطان ينفض غبار المعركة عن كاهله ، وينفض من عثرته ، ويهتف لحزبه الذي عاد يتلم الزمام !

عندما حدث هذا كله لم تترد حياة البشرية تماما إلى أوضاعها المتخلفة في الجاهلية الأولى .. لقد كان الإسلام هناك - حتى وهو يتراجع عن مكان الصدارة في الأرض - وكانت هنالك من ورائه خطوط عريضة ، ومبادئ ضخمة ، قد استقرت في حياة البشرية ، وصارت مألوفة للناس ، وزالت عنها الغرابة التي استقبلوها بها يوم جاءهم بها الإسلام أول مرة .

هذه الخطوط العريضة ، وهذه المبادئ الضخمة هي التي سنحاول الإشارة إلى نماذج قليلة منها في هذا الفصل على سبيل الإجمال .

إنسانية واحدة :

من العصبية القبلية ، بل عصبية العشيرة ، بل عصبية البيت ، التي

كانت تسود الجزيرة العربية .. ومن عصبية البلد ، وعصبية الوطن ،
وعصبية اللون ، وعصبية الجنس .. التي كانت تسود وجه الأرض كله .

من هذه العصبيات الصغيرة التي لم تكن الشرية تتصور غيرها في
ذلك الزمان ، جاء الإسلام ليقول للناس : إن هناك إنسانية واحدة ،
ترجع إلى أصل واحد ، وتوجه إلى إله واحد . وإن الاختلاف الأجناس
والألوان ، واختلاف الرقعة والمكان ، واختلاف العنائر والآباء ... كل
أولئك لم يكن ، ليتفرق الناس ويختصموا ، ويتحوصلوا وينزلوا . ولكن
ليتعارفوا ويتآلفوا ، وتتوزع بينهم وظائف الخلافة في الأرض ، ويرجعوا
بعد ذلك إلى الله الذي ذرأهم في الأرض واستخلفهم فيها . وقال لهم
الله سبحانه في القرآن الكريم :

«يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير» ...
(الحجرات : ١٣)

«يأأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق
منها زوجها ، وبث منها رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به
والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا» ...

(النساء : ١)

«ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ،
إن في ذلك لآيات للعالمين» ...

(الروم : ٢٢)

ولم تكن هذه مبادئ نظرية ، ولكنها كانت أوضاعا عملية .. لقد انساح الإسلام في رقعة من الأرض مسيحة ، تكاد تضم جميع الأجناس وجميع الألوان .. وذابت كلها في النظام الإسلامى . ولم تقف وراثه لون ، ولا وراثه جنس ، ولا وراثه طبقة ، ولا وراثه بيت ، دون أن يعيش الجميع إخوانا ، ودون أن يبلغ كل فرد منهم ما تؤهله له استعداداته الشخصية . وما تكفله له صفته الإنسانية .

واستقر هذا الخط العريض في الأرض ، بعد أن كان غريبا فيها أشد الغربة ، ومستكرا فيها كل الاستنكار .. وحتى بعد انحصار المد الإسلامى لم تستطع البشرية أن تشكر له كل الشكر ، ولم تعد تستغربه كل الاستغراب ..

حقيقة : إنها لم تستطع أن تمثله كما تمثلته الجماعة المسلمة ، ولم يستقر فيها استقراره في المجتمع الإسلامى .

وحقيقة : إن عصبيات شتى صغيرة ما تزال تعيش . عصبيات الأرض والوطن . وعصبيات الجنس والقوم . وعصبيات اللون واللسان . وحقيقة : إن الملونين في أمريكا وجنوب إفريقيا يؤلفون مشكلة حادة بارزة ، كما يؤلفون مشكلة ناعمة مستترة في أوروبا كلها !

ولكن فكرة الإنسانية الواحدة ما تزال خطا عريضا في هتافات البشرية اليوم ، وما يزال هذا الخط الذى خطه الإسلام هو أصل التفكير البشرى - من الناحية النظرية - وما تزال تلك العصبيات الصغيرة تنزع وتختفى ، لأنها ليست أصيلة ولا قوية !

لقد انخرس المد الإسلامي الأول ، الذي استمد من رصيد الفطرة وحده ما خط به هذا الخط العريض . ولكنه ترك للعد التالي رصيد الفطرة ورصيده الذاتي . لتستمد منه الجولة القادمة . والشرية أكثر إدراكا ، وأكثر استعداداً ، وقد زالت عنها دهشة المفاجأة بهذا الخط الحديد !!!

انسانية كريمة :

وجاء الإسلام والكرامة الإنسانية وقف على طبقات معينة ، وعلى بيوت خاصة ، وعلى مقامات معروفة .. أما الغناء . غناء الجماهير . فهو غناء ! لا وزن له ولا قيمة ، ولا كرامة ! غناء !!!

وقال الإسلام كلمته المدوية : إن كرامة الإنسان مستمدة من «إنسانيته» ذاتها لا من أي عرض آخر كالجنس ، أو اللون ، أو الطبقة ، أو الثروة ، أو المنصب ... إلى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة .. والحقوق الأصيلة للإنسان مستمدة إذن من تلك الإنسانية . التي ترجع إلى أصل واحد كما أسلفنا .

وقال لهم الله في القرآن الكريم :

«ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»

(الإسراء : ٧٠)

«وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة»

(البقرة : ٣٠)

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر
وكان من الكافرين»

(البقرة : ٣٤)

«وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه» .

(الحاقة : ١٣)

وعلم الناس منذئذ : أن الإنسان - بحسه - كريم على الله وأن
كرامته ذاتية أصيلة ، لا تتبع جنسه ، ولا لونه ، ولا بلده ، ولا
قومه ، ولا عشيرته ، ولا بيته . ولا عرضاً من هذه الأعراض الراضة
الرخيصة . إنما تتبع كونه إنساناً من هذا الجنس الذي أفاض عليه ربه
التكريم .

ولم تنكس هذه مبادئ نظرية ، إنما كانت واقعا عمليا ، تمثل في
حياة الجماعة المسلمة . وانساحت به في أرجاء الأرض ، فعلته للناس ،
وأقرته في أوضاع حياتهم كذلك . وعلمت جمهور الناس .. ذلك
الغناء .. أنه كريم ، وأن له حقوقا ، هي حقوق الإنسان ، وأن له أن
يحاسب بحكامه وأمراته . وأن عليه ألا يقبل الذل والضم والمهانة .
وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق رائدة على حقوق الجماهير
من الناس ، وأنه ليس لهم أن يهبوا كرامة أحد من ليس بحاكم ولا
أمير .

وكان هذا ميلاداً جديداً «للإنسان» .. ميلاداً أعظم من الميلاد
الحسى .. فما الإنسان إذا لم تكن له حقوق الإنسان وكرامة الإنسان ؟
وإذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته وبحقيقته التي لا تتخلف
عنه في حال من الأحوال ؟

بدأ أبو بكر - رضى الله عنه - عهده بقوله :

«لقد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعبدوني . وإن
أسأت فقوموني . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيته فلا طاعة لي
عليكم» ...

وخطب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال يعلم الناس حقوقهم
تحاه الأمراء .

«يا أيها الناس . إني والله ما أرسل إليكم عملاً ليضربوا بأشاركم . ولا
ليأخذوا من أموالكم . ولكي أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستكم .
فمن فعل به شيء من ذلك فليرقعه إلي . فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه
منه ..» فوثب عمرو بن العاص فقال :

«يا أمير المؤمنين أرايتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته ،
فأدب بعض رعيته . إنك لتقص منه ؟»

«قال عمر : إني والذي نفس عمر بيده . إذا لأقصنه منه . وكيف
لا أقص منه . وقد رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقص من

نفسه . ألا لا تضربوا الناس فتذلّوهم . ولا تجمّروهم^(١) ففتنّوهم ، ولا تمنعواهم حقوقهم فتكفروهم .

وكتب عثمان - رضى الله عنه - إلى جميع الأمصار كتاباً قال فيه :
«إني آخذ عمالي بمواظاتي كل موسم وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فلا يرفع على شئ ، ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته . وليس لي ولا لعمالي حق قبل الرعية لا متروك لهم . وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ويضربون . فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ، يأخذ حقه حيث كان ، مني أو من عمالي . أو تصدّقوا ، إن الله يجزي المتصدقين .»

والمهم - كما أسلفنا - أن هذه لم تكن مجرد مبادئ نظرية ؛ أو مجرد كلمات تقال . فقد طبقت تطبيقاً واقعياً ؛ وسرت في أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعدة للأوضاع العملية .

وحادثة ابن القبطي الذي سابق ابن عمرو بن العاص ، قاتع مصر ووالها فسبغه فضره ابن عمرو ، فشكا أبوه إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فأقصه منه في موسم الحج وعلى ملأ من الناس .. حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر... ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحرري الذي أطلقته الإسلام في صفائر الناس وفي حياتهم ..

(١) لا تجمّروهم لا تعبدوهم طويلاً عن يومهم وأزواجهم

فصر إذ ذاك بلد مفتوح . حديث عهد بالفتح وبالإسلام . وهذا القبطى قبطى لم يزل على دينه ، مردأ من جماهير البلد المفتوح . وعمر بن العاص هو فاتح هذا الإقليم ، وأول أمير عليه من قبل الإسلام .. وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامى هم الرومان : أصحاب السياط التى تجلد ظهور شعوب المستعمرات ! ولعل ذلك القبطى كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان !

ولكن المد التحررى الذى أطلقه الإسلام فى أنحاء الأرض ، أنسى ذلك القبطى سياط الرومان وذاها ، وأطلقه إنسانا حرا كريما ، يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه ، يعد اشتراكها فى سباق ، وهذه أخرى ، ثم تحمله هذه العنبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر الى المدينة ، لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطارا ، ولكن جملا ، بحب به ويضع الأشهر الطوال ، كل ذلك ليشكو إلى الخليفة .. الخليفة الذى حرره يوم فتح بلده تحت راية الإسلام ! والذى علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان !

وهكذا ينبغي أن نفهم ، وأن ندرك عمق المد الإسلامى التحررى فليست المسألة فقط أن عمر عادل ، وأن عدله لا تتناول إليه الأعناق فى جميع الأزمان ، ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر - المستمد من الإسلام ومنهجه ونظامه - قد انطلق فى الأرض تيارا جارفا محمرا مكرما للإنسان .. بصفته « الإنسان » ..

هذا المستوى الرفيع لم ترتفع إليه الإنسانية قط .. هذا صحيح .. ولكن هذا الخط المعريض الذى شطه الإسلام ، فى كرامة الإنسان

وحريته وحقوقه نجاه حكماء وأمرائه ، قد ترك في حياة البشرية آثارا لا
شك فيها . وبعض هذه الآثار هو الذي يدفع بالبشرية اليوم إلى إعلان
«حقوق الإنسان» ..

وحقيقة أن هذا الإعلان لم يأخذ طريقه الواقعي في حياة البشرية .
وحقيقة أن «الإنسان» ما يزال يلقي المهانة والإذلال والتعذيب والحرمان
في شتى أنحاء الأرض . وحقيقة أن بعض المذاهب تجعل مقام الإنسان
دون مقام الآلة ، وتقتل حرية الإنسان وكرامته وخصائصه العليا في
سبيل وفرة الإنتاج وعضافة الدخل ، والتفوق في الأسواق !

كل هذا صحيح . ولكن هذا الخط ما يزال قائما في مدارك البشرية
وتصوراتها ولم يعد غريبا عليها كما كان يوم جاءها الإسلام . وهي اليوم
أقدر على إدراكه وتصوره ، حيا تحاطب به في الحولة القادمة بإذن الله .

أمة واحدة :

وجاء الإسلام فوجد الناس يتجمعون على آصرة النسب ، أو
يتجمعون على آصرة الجنس ، أو يتجمعون على آصرة الأرض ، أو
يتجمعون على آصرة المصالح والمنافع القريبة .. وكلها عصبية لا علاقة
لها بجوهر الإنسان ، إنما هي أعراض طارئة على جوهر الإنسان الكريم .
وقال الإسلام كلمته الحاسمة في هذا الأمر الخطير ، الذي يحدد
علاقات الناس بعضهم ببعض تحديدا أخيرا .

قال : إنه لا لون ولا جنس ، ولا نسب ولا أرض ، ولا مصالح

ولا منافع ، هي التي تجمع بين الناس أو تفرق .. إنما هي العقيدة .. هي علاقتهم بربهم التي تحدد علاقتهم بعضهم ببعض . فعلاقتهم بالله هي التي منحتهم إنسانيتهم ومن ثم فهي التي تقرر مصائرهم في الدنيا والآخرة سواء . إن النعمة التي جاءتهم من روح الله هي التي جعلت من الإنسان إنسانا ، وهي التي كرمت هذا الإنسان وسخرت له ما في السماوات وما في الأرض . فعلى أساس هذه الحقيقة يتجمع الناس أو يفترقون إذن ، لا على أساس أي عرض آخر طارئ على حقيقة الإنسان .

إن آصرة التجمع هي العقيدة ، لأن العقيدة هي أكرم خصائص الروح الإنساني . فأما إذا انبثت هذه الوشيعة فلا آصرة ، ولا تجمع ، ولا كيان !

إن الإنسانية يجب أن تتجمع على أكرم خصائصها ، لا على مثل ما تتجمع عليه البهائم من الكلال والمرعى ، أو من الحد والسياح !

إن هناك حزبين اثنين في الأرض كلها : حزب الله وحزب الشيطان . حزب الله الذي يقف تحت راية الله ويحمل شارته . وحزب الشيطان وهو يضم كل ملة وكل فريق وكل شعب وكل جنس وكل فرد لا يقف تحت راية الله .

والأمة هي المجموعة من الناس تربط بينها آصرة العقيدة . وهي جنسيتها . وإلا فلا أمة ، لأنه ليست هناك آصرة تجمعها .. والأرض ، والجنس ، والدعة ، والنسب ، والمصالح المادية القريبة ، لا تكفي واحدة منها ، ولا تكفي كلها لتكوين أمة ، إلا أن تربط بينها رابطة العقيدة .

الآصرة فكرة تعم القلب والعقل ، وتصور يفسر الوجود والحياة ..
ويرتبط بالله ، الذى من نفخة روحه صار الإنسان إنسانا ، وافترق عن
البهائم والوحوش ، وافترق تجسده عن تجمعها ، وامتاز بالتكريم من
الله .

وقال الله للمؤمنين به فى كل أرض ، وفى كل جيل ، ومن كل
جس ولون ، ومن كل فريق وقبيل ، على مدار القرون ، من لدن نوح
عليه السلام ، إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - وإلى آخر الزمان :
«إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون» .

(الأنبياء : ٩٢)

وقاضل بين الناس بعضهم وبعض على أساس العقيدة ، مها تكن
روابط النسب بينهم ، وشائج الجس والأرض . فقال :

«لا نجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله
ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم .
أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات
تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك
حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون» .

(المجادلة : ٢٢)

وجعل هنالك سببا واحدا للقتال - حيث لا يكون بد من القتال - هو
الجهاد فى سبيل الله . وحدد هدف المؤمنين وهدف غير المؤمنين تحديدا
حاسما صريحا :

«الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله - والذين كفروا يقاتلون في سبيل
الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان . إن كيد الشيطان كان ضعيفا » .
(النساء : ٧٦)

وكان غريبا على البشرية كلها في ذلك الزمان ، أن يتجمع الناس
على عقيدة ، وألا يتجمعوا على أرض ، ولا على جنس ، ولا على
لون ، ولا على نجارة ، ولا على أى عرض من الأعراض الزهيدة !
كانت هذه «المذهبية» بتعبير العصر الحاضر ، مسألة عربية حدا يوم
جاء بها الإسلام .. ولكن ما هي ذى البشرية في الأيام الحاضرة
تتسبغها ، فتتجمع أوطان وأقوام ولغات وألوان وأجناس شتى .. على ..
على مذهب !

حقيقة إنها لا تتجمع على عقيدة في الله ، إنما تتجمع على مذهب في
الاقتصاد أو الاجتماع .. ذلك أن البشرية هابطة . الأعراض القرينة أكرم
عليها من الحقيقة الكبيرة . ولكنها على أية حال تدرك أن رابطة التجمع
يمكن أن تكون عقيدة . يمكن أن تكون فكرة يمكن أن تكون رابطة
معنوية !

وهذا تقدم على كل حال !

وبقي أن ترتفع البشرية ، وأن تتطلع إلى ما هو أكرم وأعلى . وأن
تدرج في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة . على حذاء الإسلام في الجولة
النقادمة . مرودة برصيد الفطرة القديم ، ومستعينة كذلك بهذا الرصيد
الحديد !

ذمة وخلق :

... ولكن الإسلام حين جمع الناس على آصرة العقيدة ، وجعلها هي قاعدة التجمع أو قاعدة التعرقة لم يجعل الإكراه على العقيدة قاعدة الحركة فيه ، ولا قاعدة التعامل . ولم يجعل شريعة الغاب والناّب هي التي تحكم علاقاته بالآخرين ، الذين لا يعتقدون عقيدته ، ولا يتجمعون على آصرته .

لقد فرض الله الجهاد على المؤمنين ؛ لا ليكرهوا الناس على اعتناق الإسلام ، ولكن ليقموا في الأرض نظامه الشامخ العادل القويم . على أن يختار الناس عقيدتهم التي يحبون ، في ظل هذا النظام الذي يشمل المسلم وغير المسلم ، في عدل تام

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم »
(البقرة : ٢٥٦)

واعتبر الأرض التي يسيطر عليها النظام الإسلامي وتحكمها الشريعة الإسلامية هي « دار الإسلام » سواء كان سكانها من معتنق عقيدته كلهم أو كان بعضهم من معتنق الديانات الأخرى .. واعتبر الأرض التي لا يسيطر عليها النظام الإسلامي ولا تحكمها الشريعة الإسلامية هي « دار الحرب » أيا كان سكانها !

لم يترك الأمر لشريعة العاب والناّب في العلاقات بين دار الحرب ودار الإسلام . بل نظم هذه العلاقات تنظيمًا دقيقًا ، يحكمه الخلق والنظافة والاستقامة .

فدار الإسلام إما أن تكون على عهد وميثاق مع دار الحرب ، فهو العهد المرعى والميثاق المحفوظ ، لا غدر فيه ولا خيانة ، ولا مباغنة ولا مفاجأة . إلا أن ينتقض الأجل ، أو ينتقض العهد أهل دار الحرب .

وإما أن تكون هناك موادة - بلا معاهدة مؤقتة - فهي الموادة إلا أن يند إلى أهل دار الحرب - عند خوف الحياة - ويعملوا بانقضاء فترة الموادة

وإما أن تكون هي الحرب .. وللحرب قيود وضيقات . فإن جنحوا للسلم مؤثرين المعاهدة والجزية والرضى بالنظام الإسلامى ، مع حررتهم فى اختيار العقيدة ، . فلهم ذلك على المسلمين :

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون : الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون . فإذا تثقفتم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تغفلوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم »

(الأفال : ٥٥ - ٦١)

وأكد على الوفاء بالعهد ، مبطلا حجة «مصلحة الدولة» فإنها لا تحيز نقض العهود :

«وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هي أرسى من أمة . إنما يبلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . . .»

(الحل : ٩١ - ٩٢)

فإذا كانت الحرب فهى الحرب التى لا تهتك فيها حرمة ؛ ولا يقتل فيها صبي ولا شيخ ولا امرأة ؛ ولا يحرق فيها زرع ، ولا يتلف فيها ضرع ، ولا يمثّل فيها بإنسان ، ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح في وجه المسلمين .. وهذه وصية أنى بكر لجيش أسامة وهو داهب لمقاتلة الروم .

«لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا . صغيرا ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة . ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تذبحوا شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ... اندفعوا باسم الله ...»

ولست أنوى هنا استقصاء قوانين المعاملات بين دار الإسلام ودار الحرب ، ولا بين المسلمين وسائر الأقوام . فهذا البحث الحمل ليس مكان هذا التفصيل .. إنما أريد أن أصل إلى الخط العريض الذى أقامه الإسلام في الأرض ، للتعامل بين المعسكرات المختلفة ، حيث لم يكن لذلك الخط وجود . فما كانت الأمم - يوم جاء - تتعامل إلا بقانون

السيف وحده ، أو قانون الغاب والثاب - فمن كان يملك القوة فكل شيء له حلال . والمغلوب لا حقوق له على الإطلاق !

هذا الخط الإسلامى العريض لم يذهب ولم يمح من واقع البشرية فقد بدأ العالم فى القرن السابع عشر الميلادى (القرن الحادى عشر الهجرى) فى التعامل على أساس من القانون ! وأخذ يخطو خطوات متوالية فى «القانون الدولى» وجعل يحاول إقامة هيئات دولية للتحكيم فى القرن التاسع عشر ، وظلت هذه الشكليات تتأرجع بين النجاح والفشل حتى اللحظة الحاضرة .. ووجدت بحوث قوية وضخمة فى القوانين الدولية .

ومن ثم لم تعد الأنظمة التى جاء بها الإسلام غريبة غريبها يوم جاء . حقيقة أن البشرية لم ترتفع قط إلى المستوى الأخلاقى الذى بلغته الجماعة المسلمة فى التعامل الواقعى .

وحقيقة أن نكسات قوية قد وقعت فى هذا العصر حتى فى القوانين الدولية النظرية التى وصل إليها الفقه القانونى فى العالم الغربى . فالعى شرط إعلان الحرب . ونقض المعاهدات ، وإنهاء المودعات ! وأصبح الأمر غيلة أشد من حالة الوحوش فى الغاب !

وحقيقة إن دوافع الحرب والسلم لم ترتفع قط عن المصالح والمعام والأسلاب والأسواق ، ولم ترق قط إلى أفق الفكر والعقيدة والخير والعدل والصلاح التى يستهدفها الجهاد فى الإسلام .

كل هذا صحيح . ولكن خط التعامل الدولى على أساس من القانون

المعروف لجميع الأطراف .. قد وجد . أوجده الإسلام لأول مرة . وخطه
في حياة البشرية ذلك المهبج الإلهي القويم الرفيع .

فإذا خطبت البشرية مرة أخرى بهذا المهبج لم يكن هذا الخط عربيا
عليها ولا مستكرا .. قد تظل أسسه الأخلاقية الرفيعة عربية على البشرية
الواغلة في مستنقع الجاهلية ، فترة من الزمان . ولكن أصل الخط
وصورته لن تكون غريبة ولا مستكرة

والإسلام الذي اعتمد أول مرة على رصيد الفطرة وحده في إقرار
مبادئه ، ورسم خطوطه ، سيعتمد في الجولة القادمة على ذلك الرصيد .
ويعتمد - إلى جانبه - على تلك التجارب الواقعة المعهودة . وسيكون -
بإذن الله - أقدر على استئناف خطواته من حديد .. بهذا الرصيد .



وَبَعْد !

وبعد ، فإننا لا نملك في هذا البحث الجميل أن نغضى أكثر من هذا في الحديث عن المخطوط العريضة التي خطها الإسلام في حياة البشرية وتاريخها وواقعها ، والتي لم تكن معروفة من قبل ولا مألوفة ، والتي بقيت منها ملامح وآثار في حياة البشر ، منها تكن باهتة . ومنها تكن مسحقة ، ومنها تكن هالطة عن القمة السامقة التي ارتفع إليها الناس في ظل المنهج الإلهي القويم

هذه النماذج القليلة التي أشرنا إليها تصلح إشارة إلى عشرات المخطوط العريضة التي أقرأها ذلك المنهج . بعد أن أنشأها إنشاء . ويمكن القياس عليها في شتى جوانب الحياة البشرية خلال أربعمائة وألف عام .

» « «

ولكن الكلمة التي لا بد أن يقال في ختام هذا البحث الجميل ، كي لا يغتر الدعاة إلى الله ، وإلى منهج الله ، بهذه العوامل المساعدة ، وينسوا أخذ الأهبة كاملة لأشواك الطريق وعوائقه ..

هذه الكلمة ينبغي أن تكون عن المخطوط المضادة ، وعن عوائق الطريق الكأداء !

إن البشرية بحملتها اليوم . أبعد من الله .
إن الركاب الذي يربس على الفطرة أثقل وأظلم . فالجاهليات القديمة
كانت جاهليات جهل وسذاجة وقنوة . أما الجاهلية الحاضرة فجاهلية
علم ! وتعقيد ! واستهتار !

إن الفتنة بفتوحات العلم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
الميلاديين كانت فتنة طاغية . والهروب من الكنيسة ومن إله الكنيسة الذي
نصول باسمه وتجول ، وتحرق العلماء ، وتعذب المفكرين ، وتناهض
النهضات .. كان هروبا صحتونا آتقا لا يلوى على شيء ، ولا يبقى على
مقدس !

حقيقة إن العلم ذاته منذ مطلع هذا القرن قد أخذ يقود كبار العلماء
إلى الله من جديد . والفطرة التي أشقاها الصرب في آتية قد بدأ يبدو
عليها التعب والخيب إلى الله من جديد .. ولكن تلك الفتنة ما تزال في
عنواها . وقد يقصى هذا القرن كله قبل أن تظهر البوادر الكاملة لعودة
القطيع الشارد من آتية البعيد

والحياة الدنيا قد اتسعت رقعتها في حس الناس وواقعهم ! اتسعت
رقعتها بما استحدثته الحضارة من وسائل الحياة والمتاع والاستقرار في
الأرض ، وأحس الناس بضخامة هذه الحياة في واقعهم وفي مشاعرهم
سواء . وأضافت العلوم والثقافات والصون والهوايات مساحات ضخمة
إلى رقعة الحياة في واقع الناس وفي مشاعرهم سواء ! .

ولو قام هذا كله على أساس من المعرفة بالله ، وخصائص الألوهة
وخصائص العبودية ، وعلى أساس من الحقيقة العميقة . حقيقة أن الله
هو الذى استخلف الإنسان فى الأرض ، وسخر له ما فيها ، وروده
بالمواهب والاستعدادات التى نعيمه على الخلافة ، ونيسر له طيبات الحياة .
كلها .. وأنه مبتلى فى هذا كله ليحاسب فى الآخرة على ما قدم فى حياته
الدنيا ..

لو قام هذا كله على هذا الأساس الصحيح ، لكانت هذه المساحات
الجديدة التى أضاعها العلم وأضاعها الحضارة ، لرقعة الحياة فى واقع
الناس ومشاعرهم . مساحات تضاف إلى رقعة الإيمان ، وتزيد الناس
قربا من الله ومهجه القويم الممثل فى الإسلام

ولكن هذا كله إنما قام على أساس الهروب من الكمية الطاغية ومن
إلهها الذى نستطيع به على الناس ! فكانت هذه الإضافة إلى رقعة الحياة
مبعدة عن الله ، وعقبة فى الطريق إليه ، ينمى أن يحسب حسابها
الدعاة !

حقيقة أن البشرية قد شقت وتعبت من حمل هذه الحصار
المادية ، والمضى فى متاعها المترف . وحقيقة أن الفساد والاحلال
والأمراض العنصرية والنفسية ، والشذوذ العقلى والجنىسى ، وآثار ذلك
كله تنخر فى جسم هذه الحضارة ، وتشقى الأمم والأفراد ، وتفتح الأعين
عنفت على الشر والفساد والدمار ..

ولكن الشرية ما تزال فى هياجها الحيوانى ، وفى خمارها الجبولى ،
وفى نشوتها المعرودة . وقد يتقضى هذا القرن كله قبل أن تفتح العيون

فعلا وتصحو الأدمعة من هذا الحمار ، وتكف البشرية أو تفكر في أن
تكف عن هذا الدوار !

وكانت الجاهليات الأولى قرية العهد بالبدوة ، فيها فتوة البدوة
وحدها على كل حال .

كانت للناس تقاليد ، وكانت أخلاق الفتوة - في الغالب - تحكم
تصرفات الناس .

وعلى قدر ما كانت هذه الفتوة تجعل المعركة بين أصحاب الدعوة
وأصحاب الجاهلية قاسية وعنيفة ، فإنها كانت تجعلها مكشوفة وصریحه ..
كانت العطرة قريبة .. تلي ونجيب ، من قريب ، من وراء العباد
والكبراء .. وكان هناك الجد الصارم في الكفر أو الإيمان سواء ..

وهذا على كل ما يثيره من المتاعب ، خير من الميوعة والاستهتار
وعدم المبالاة !

والبشرية اليوم تعاني من التميع والاستهتار والاستخفاف بكل عقيدة
وكل رأي وكل مذهب . كما تعاني من هفاق القلب . وكيد الصغف
ونخبث الاحتيال !

وكلها عقبات في طريق الدعوة إلى الله ، ومعوقات عن الاستقامة
على منهج الله .

وغير هذا كثير من لونه ، ومن ألوان شتى . يسعى ألا يهون من شأنه ، كى لا يعتز المدعاة إلى الله بالعوامل المساعدة ، ثم لا يترودوا كل الزاد

ولكن ما المرد ؟

إبه راد واحد .. رد التقوى إبه الشعور بالله على حقيقته إبه التعامل مباشرة مع الله . والثقة المطلقة بوعده الحارم الحاسم «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» (الروم . ٤٧)

والأمر كله هو أمر العصاة المؤمنة التى تضع يدها فى يد الله ثم تفضى فى الطريق . وعد الله لها هو واقعها الذى لا وقع غيره ، ومرصاة الله هى هدها الأول وهدوها الأخير .

وهذه العصاة التى تحرى بها سنة الله فى تحقيق منهج الله ، وهى التى تنفص ركاب الحاهلية عن العطرة ، وهى التى يتمثل فيها قدر الله فى أن يعلو كلمته فى الأرض ، ويتسلم منهجه الرمام .

«قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن بمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . ولنجس الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين» (آل عمران : ١٣٧ - ١٤١)

وصدق الله العظيم .

يصدر عن دار الشروق

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الأستاذ سيد قطب

- في ظلال القرآن
- مشاهد القيمة في القرآن
- التصوير الفني في القرآن
- الإسلام ومشكلات الحضارة
- خصائص التصور الإسلامي ومفوماته
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه
- مهمة الشاعر في الحياة
- هذا الدين
- السلام العالمي والإسلام
- معالم في الطريق
- دراسات إسلامية
- نحو مجتمع إسلامي
- في التاريخ فكرة ومباج
- تفسير آيات الرضا
- تفسير سورة الشورى
- كتب وشخصيات
- المستقبل لهذا الدين
- معركتنا مع اليهود
- معركة الإسلام والرأسمالية
- العدالة الاجتماعية في الإسلام

مكتبة الأستاذ محمد قطب

- الإنسان بين المادية والإسلام
- مسج المر الإسلامي
- مسج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
- مسج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
- معركة التقاليد
- في النفس والمجتمع
- التطور والثبات في حياة البشرية
- دراسات في النفس الإنسانية
- هل نحن مسلمون
- قبسات من الرسول
- شبهات حول الإسلام
- جاهلية القرن العشرين
- دراسات قرآنية
- مفاهيم ينبغي أن تصحح
- مذاهب فكرية معاصرة
- كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- تحت الطبع
- المستشرقون والإسلام

من كتب دار الشروق الإسلامية

- مصحف الشروق المفسر المبسر
 مختصر تفسير الإمام القطري
 تحفة المصاحف وقمة التفسير
 في أحجام مختلفة وطباعت منفصلة لبعض الأجزاء
 تفسير القرآن الكريم
 الإمام الأكبر محمود شلتوت
 الإسلام عقيدة وشريعة
 الإمام الأكبر محمود شلتوت
 الفتاوى
 الإمام الأكبر محمود شلتوت
 عن توجيهات الإسلام
 الإمام الأكبر محمود شلتوت
 إلى القرآن الكريم
 الإمام الأكبر محمود شلتوت
 الوصايا العشر
 الإمام الأكبر محمود شلتوت
 أسلم في عالم الاقتصاد
 الأستاذ مالك بن نبي
 أمية ■
 الأستاذ أحمد سحبت
 نبي الإنسانية
 الأستاذ أحمد حسبي
 وبانية لا رهبانية
 أبو الحسن علي الحسيني السمرقي
 المحبة في القراءات السبع
 د. بيم الدكتور عبد العال سالم مكرم
 الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
 الدكتور عبد العال سالم مكرم
 على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
 الأستاذ إبراهيم بن علي الوديع
 الرسالة الخالدة
 الأستاذ عبد الرحمن عزام
 محمد رسولاً نبياً
 الأستاذ عبد الرزاق بوفل
 مسلمون بلا مشاكل
 الأستاذ عبد الرزاق بوفل
 الإسلام في مغرب الطرق
 الدكتور أحمد عروة
 العقوبة في الفقه الإسلامي
 الدكتور أحمد فتحي سبي
 مواقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
 الدكتور أحمد فتحي سبي
 الجرائم في الفقه الإسلامي
 الدكتور أحمد فتحي سبي
 مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
 الدكتور أحمد فتحي سبي
 الفصاح في الفقه الإسلامي
 الدكتور أحمد فتحي سبي
 الدية في الشريعة الإسلامية
 الدكتور أحمد فتحي سبي
 الإسراء والمعراج
 فضيلة الشيخ متول الشعراوي

مناقشة الحج والمعرة في ضوء المذاهب الأربعة
 الدكتور عبد العظيم المطعني
 أيها الولد المحب
 الإمام الغزالي
 الأدب في الدين
 الإمام الغزالي
 شرح الوصايا العشر
 للإمام حسن البنا
 القرآن والسلطان
 الأستاذ فهمي مويدي
 غايا الأسراء والمعراج
 الأستاذ مصطفى الكيك
 الخطابة وإعداد الخطيب
 الدكتور عبد الجليل شلي
 تاريخ القرآن
 الأستاذ إبراهيم الأبياري
 الإسلام والمبادئ المستوردة
 الدكتور عبد المنعم النمر
 سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١
 سلسلة أهل البيت ٦/١
 إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
 تأليف الدكتور علي عبد الله الدقاع
 تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
 مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد
 الخبر الواحد في السنة والقراءات وأثره في الفقه
 الإسلامي
 الدكتورة سهر رشاد مهنا
 الأديان القديمة في الشرق
 دكتور رؤوف شلي

القصص والقدر
 فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
 قضايا إسلامية
 فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
 التعبير الفني في القرآن
 الدكتور بكري الشيخ أمين
 أدب الحديث النبوي
 الدكتور بكري الشيخ أمين
 الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 اليهود في القرآن
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 أيام الله
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 مسلمون وكلمى
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 الدعوة الروحية
 الأستاذ عبد الكريم الخطيب
 قال الأولون - أدب ودين
 الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
 قل يا رب
 الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
 الإيمان الحق
 المستشار علي جريش
 الجديد حول أسماء الله الحسنى
 الأستاذ عبد المنعم سعيد
 الحائز والمنع في الصيام
 الدكتور عبد العظيم المطعني

رقم الايداع . ١٧٨٩ / ١٩٨٩
ترقيم الدول . ١ - ٢٩٧ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصرى - ت : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



في ظلال القرآن
العدالة الاجتماعية في الإسلام
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
النقد الأدبي أصوله ومناهجه
كتب وشخصيات
الإسلام ومشكلات الحضارة
التصوير الفني في القرآن
مشاهد القيامة في القرآن
معركتنا مع اليهود
تفسير سورة الشورى
تفسير آيات الربا
دراسات إسلامية
السلام العالمي والإسلام
معركة الإسلام والرأسمالية
في التاريخ فكرة ومنهاج
معالم في الطريق
هذا الدين
المستقبل لهذا الدين
نحو مجتمع إسلامي